Perim
بريم
مجلة شهرية تحليلية تصدر كل شهر
تهتم بقضايا الدول المشاطئة على البحر الأحمر وخليج عدن
العدد: (19) - سبتمبر/أيلول 2025

المدن العربية بين البحر والمناخ...
تخطيط العمران في مواجهة التحولات البيئية

قراءة علمية في أثر التغيرات المناخية على المدن المشاطئة للبحر الأحمر وخليج عدن

القوة الناعمة في السياسة الخليجية..
من التأثير الدبلوماسي إلى البناء الإنساني

تحليل مقارن بين التجربتين السعودية والإماراتية في توظيف الثقافة والإعلام والتنمية لتعزيز المكانة الإقليمية والدولية.

القرن الحادي والعشرون..
من يقود التحول العربي؟

Perim بريم
مجلة شـهرية تحليلية تصدر كل شـهر

تهتم بقضايا الدول المشاطئة على البحر الأحمر وخليج عدن
تصدر عن مؤسسة اليوم الثامن للإعلام والدراسات

Political and Economic Magazine Concerned with the Issues of the Red Sea and Gulf of Aden Countries - Published by the alyoum8th Foundation for Media and Studies

العدد: (19) - سبتمبر/ أيلول2025

مجلة سياسية اقتصادية تهتم بقضايا الدول المشاطئة على البحر الأحمر وخليج عدن، صادرة عن مؤسسة اليوم الثامن للإعلام والدراسات، وتحمل ترخيص رقم (0693).
تأسست في مدينة عدن
جنوب اليمن في فبراير/ شباط العام 2024م
العنوان - جنوب اليمن - عدن - البريقة
للتواصل
واتساب: 00967777491124
ايميل: perimjournal@gmail.com
الموقع الإلكتروني:
perimjournal.com - perimjournal.net

"الآراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها لا عن سياسة مؤسسة اليوم الثامن للإعلام والدراسات"

حُقُوقُ الطَّبعِ مَحفُوظةٌ

@Perimjournal

صالح أبو عوذل
رئيس مؤسسة اليوم الثامن للإعلام والدراسات رئيس مجلس إدارة مجلة بريم

د. صبري عفيف
نائب رئيس مؤسسة اليوم الثامن للإعلام والدراسات، مشرف عام مجلة بريم

د. أشجان الفضلي
المدير التنفيذي لمؤسسة اليوم الثامن للإعلام والدراسات

حنين فضل
المدير الإداري في مؤسسة اليوم الثامن للإعلام والدراسات

هيئة التحرير
د. سالم الحنشي
رئيس تحرير
د. عباس الزامكي
مدير التحرير
د. شورى فضل
سكرتير التحرير

تحرير
د. سميح الأهدل
د. إيزيس المنصوري
د. طارق شعبان
د. رحيمة عبدالرحيم
د. منى عقربي
د. شورى فضل
د. عفاف سالم

مدير الإنتاج
مراد محمد سعيد

المجلس الاستشاري
أ. د. عبده يحيى صالح الدباني
أ. د. هادي فضل العولقي
أ. مساعد. د. عارف صالح السنيدي
د. هيثم حسين جواس
د. مراد عبدالله الحوشبي
د. رائد شائف القطيبي
د. فضل محمد الشاعري
د. صلاح لرضي بن دويل
العميد/ صالح علي الدويل
د. محمد جمال الشعيبي

للإعلان في مجلة بريم Perim

كن حيث يُصنع التأثير

تسرّ مجلة بريم، المجلة الفصلية المتخصصة في قضايا البحر الأحمر والأمن الإقليمي، أن تفتح أبوابها أمام المؤسسات والشركات والجهات الفاعلة للإعلان ضمن صفحاتها المرموقة

إن إعلانك في "بريم" ليس مجرد مساحة دعائية، بل هو حضور استراتيجي في منصة نخبوية تُقرأ من قبل صانعي القرار، الباحثين، الصحفيين، والمهتمين بالشأن السياسي والاقتصادي والأمني في المنطقة

لماذا تعلن في "بريم"؟

- توزيع إقليمي ودولي يضمن وصول إعلانك للفئات المؤثرة.
- محتوى تحليلي متخصص يعزز من مصداقية الإعلان.
- تصميم احترافي يُبرز علامتك التجارية بأفضل صورة.
- حضور ضمن عدد يُناقش قضايا الساعة: "التهريب، النفوذ الإقليمي، الأمن البحري"

كن شريكًا في المعرفة والتأثير. واحجز مساحتك الآن.

للتواصل والاستفسار:

perimjournal@gmail.com

00967777491124

تابعنا: perimjournal.com – perimjournal.net

شروط وضوابط النشر

1. أصالة البحث:
يجب أن يكون البحث جديدًا وأصيلًا، ولم يسبق نشره في أي وسيلة من وسائل النشر، سواء الورقية أو الإلكترونية

2. القيمة العلمية:
يشترط أن يُمثّل البحث إضافة علمية واضحة، سواء كانت نظرية أو تطبيقية

3. حجم البحث وإعداد الصفحات:
- ألا يتجاوز البحث (20) صفحة بقياس (B5)
- يجب ترك هامش لا يقل عن (3 سم) من جميع جوانب الصفحة

4. تحكيم البحوث:
- تخضع جميع البحوث المقدمة للتحكيم العلمي
- يُقبل البحث للنشر في حال اتفق اثنان من المحكّمين على صلاحيته، بعد إجراء التعديلات المطلوبة

5. محتوى الصفحة الأولى:
- تتضمن الصفحة الأولى: عنوان البحث، اسم الباحث/الباحثين، وملخصًا لا يتجاوز (100) كلمة

6. طريقة التقديم:
- يُقدّم البحث بنسخة إلكترونية بصيغة (Word)
- تُرسل النسخة إلى بريد المجلة الإلكتروني: perimjournal@gmail.com
- يجب أن تتضمن الرسالة البيانات التالية:
- عنوان البحث
- اسم الباحث/الباحثين
- الرتبة العلمية والوظيفة الحالية
- رقم الهاتف والبريد الإلكتروني

7. الملخص والمستخلص:
- يُرفق بالبحث ملخصان (بالعربية) لا يزيد كلّ منهما عن (100) كلمة، ويتضمّنان
- موضوع البحث
- الأهداف
- المنهج
- أبرز النتائج والتوصيات
- كلمات مفتاحية (لا تزيد عن خمس كلمات)

8. توثيق المراجع:
- يجب ترتيب المراجع حسب تسلسل ورودها في متن البحث

9. مسؤولية المحتوى:
- الآراء الواردة في البحوث المنشورة تعبّر عن أصحابها فقط، ولا تعكس بالضرورة رأي المجلة

10. لغة النشر:
- تقبل المجلة البحوث باللغتين: العربية أو الإنجليزية

محتويات العدد

الافتتاحية: هيئة التحرير 5

مقارنة بين التجربة السعودية والإماراتية 6

أثر التغيرات المناخية في تخطيط المدن العربية.. 49

عرض كتاب «تاريخ مصر من العهد العثماني إلى قُبيل الوقت الحاضر» 59

من الصحافة إلى القصيدة... التحول الفني في تجربة عمر الجاوي 93

بين المناخ والإنسان... وبين الحرب والسلام

في هـذا العـدد مـن مجلـة بريـم، نطـلّ على مشـهد عـربي تتقاطـع فيـه الأسـئلة الـكبرى بين السياسـة والإنسـان والعمـران؛ حيـث تفـرض التحـولات المناخيـة، والتحـولات الاجتماعيـة، والحـروب، واقعًـا جديـدًا يعيـد تشـكيل العلاقـة بين الفـرد والمـكان والدولـة

مـن الخليـج إلى البحـر الأحمـر، ومـن المـدن السـاحلية إلى العقـول الشـابة المتعبـة بالحـروب، ومـن ذاكـرة المتقاعديـن الذيـن حملـوا خبرة السـنين، إلى استراتيجيـات القـوة الناعمـة التـي ترسـم ملامـح النفـوذ الخليجـي الجديـد — يتقاطـع في هـذا العـدد البحثـي والتحليلي هاجسٌ واحـد: كيـف تبقـى المجتمعـات حيّـة رغـم كل أشـكال الإنهـاك؟

في ورقـة "القـوة الناعمـة في السياسـة الخليجيـة" للدكتـورة شـورى فضـل، نقـرأ تحليلاً مقارنًـا بين التجربـتين السـعودية والإماراتيـة، وكيـف تحـوّل الخطـاب التنمـوي والثقـافي إلى أداة نفـوذ سـياسي وإنسـاني متصاعـد. ورقـة تعيـد تعريـف "النفـوذ" ليـس بوصفـه قهـرًا، بـل قـدرة على الإقنـاع والاحترام

أمـا في دراسـة "اسـتمرار الحـرب وتأثيرهـا على فئـة الشـباب والمراهـقين"، فنجـد صوتًـا مختلفًـا يخـرج مـن قلـب المأسـاة اليمنيـة، ليصـف كيـف تحـوّل المراهقـون إلى ضحايـا لاضطـراب نـفسي واجتماعـي عميـق، وكيـف غـدت الحـرب معلمًـا قاسـيًا يبـدّل القيـم واللغة والسـلوك

ويـأتي بحـث "المتقاعـدون والاسـتفادة مـن تجاربهـم الحياتيـة وخبراتهـم المهنيـة" للأسـتاذ الدكتـور فضـل الربيعـي، ليعيـد الاعتبـار إلى الجيـل الـذي صنـع التجـارب ثـم أُقصي عنهـا قسرًا. دراسـة تنظـر إلى المتقاعديـن كـ"رأسمال اجتماعـي مهـدور" كان يمكـن أن يكـون جسرًا بين الأجيـال، لا ضحيـة لصراعهـا

وفي المقابـل، تقـدم الباحثـة رحيمـة عبـد الرحيـم في دراسـتها "أثـر التـغيرات المناخيـة في تخطيـط المـدن العربيـة في الـدول المشـاطئة للبحـر الأحمـر وخليـج عـدن" رؤيـة علميـة تربـط بين العمـارة والمنـاخ والهويـة؛ فتضعنـا أمـام سـؤالٍ حضـاري: هـل مـا زلنـا نبنـي مدنًـا تناسـب بيئتنـا، أم نكـرر أخطـاء الحداثـة في محيـطٍ لا يحتملهـا؟

إنّ هـذا العـدد لا يقـدّم مقـالاتٍ معزولـةً، بـل ينسـج بين السياسـة والاجـتماع والبيئـة خيوطًـا واحـدة تشـكّل الوجـه الإنسـاني للتحـولات الـكبرى. فـحين يتـغير المنـاخ، يتـغير عمـران المـدن؛ وحين تسـتمر الحـروب، تتبـدل بنيـة الإنسـان؛ وحين تُهـدر خبرات المتقاعديـن، تضيـع الحكمـة؛ وحين تنهـض الـدول بقواهـا الناعمـة، يتـغيّر ميـزان العـالم

مـن هنـا، تؤكـد مجلـة بريـم في هـذا العـدد أن المعرفـة ليسـت ترفًـا، بـل فعـل مقاومـة حضاريـة في زمـنٍ يـزداد اضطرابًـا، وأن بنـاء المسـتقبل يبـدأ مـن فهـم الإنسـان... لا من السـيطرة عليـه.

هيئة التحرير

القوة الناعمة في السياسة الخليجية..
مقارنة بين التجربة السعودية والإماراتية

د. شورى فضل

سكرتير مجلة بريم الصادرة عن مؤسسة اليوم الثامن للإعلام والدراسات

ملخص:

يتناول هذا البحث موضوع القوى الناعمة في السياسة الخليجية من خلال دراسة مقارنة بين التجربة السعودية والإماراتية، وذلك بهدف تحليل الكيفية التي وظفت بها كل دولة أدواتها الثقافية والدبلوماسية والإعلامية لتعزيز حضورها الإقليمي والدولي.

يُبرز البحث الدور المتزايد للقوى الناعمة كأداة حديثة في العلاقات الدولية، تسهم في بناء الصورة الإيجابية للدولة ودعم أهدافها التنموية دون اللجوء إلى القوة الصلبة.

وقد أظهرت المقارنة أن المملكة العربية السعودية ركزت في رؤيتها 2030 على تعزيز مكانتها الدينية والثقافية والانفتاح المجتمعي، بينما اتجهت دولة الإمارات ضمن رؤيتها 2071 إلى ترسيخ قيم التسامح والابتكار والريادة الإنسانية.

خلص البحث إلى أن توظيف القوى الناعمة في البلدين أسهم في تحقيق نفوذ سياسي وإنساني متزايد، وأن التكامل بين التجربتين يمكن أن يشكل أساسًا قويًا لبناء سياسة خليجية موحدة قائمة على التنمية والاستقرار والتأثير العالمي.

Abstract

This research explores the role of soft power in Gulf politics through a comparative study of the Saudi and Emirati experiences. It aims to analyze how both countries have utilized their cultural, diplomatic, and media tools to strengthen their regional and international influence.

The study highlights the growing importance of soft power as a modern instrument in international relations that helps nations shape a positive global image and achieve development goals without relying on hard power.

The comparison reveals that Saudi Arabia, through its Vision 2030, focuses on enhancing its religious, cultural, and social openness, while the United Arab Emirates, through Vision 2071, emphasizes tolerance, innovation, and global leadership.

The research concludes that both countries have successfully used soft power to expand their political and humanitarian influence, and that integrating their approaches could form the foundation for a unified Gulf strategy based on stability, development, and international influence.

مقدمة:

تُعد القوة الناعمة من أبرز المفاهيم الحديثة في العلاقات الدولية، إذ تمثل القدرة على التأثير والإقناع من خلال الجاذبية الثقافية، والقيم، والدبلوماسية، والإعلام، والتعليم، والعمل الإنساني، دون اللجوء إلى الوسائل العسكرية أو الاقتصادية المباشرة

وفي ظل التحولات السياسية والاقتصادية العالمية، أصبحت الدول تسعى إلى بناء صورتها الإيجابية وتعزيز حضورها الدولي عبر أدوات القوة الناعمة

لهذا أصبحت القوة الناعمة تمثل عنصرًا محوريًا في استراتيجيات السياسة الخارجية للدول، ولا سيما في منطقة الخليج العربي خلال العقود الأخيرة. تعكس القوة الناعمة قدرة الدولة على جذب الآخرين والتأثير فيهم من خلال ما تمتلكه من ثقافة وقيم وسياسات جذابة، بدلًا من الاعتماد على الإكراه أو القوة الصلبة[1]. وقد برز اهتمام دول الخليج بهذا المفهوم مع سعيها لتنويع مصادر نفوذها الدولي بعيدًا عن النفوذ التقليدي القائم على الثروة النفطية والقوة الاقتصادية. في هذا الإطار، برزت المملكة العربية السعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة كنموذجين رائدين في توظيف أدوات القوة الناعمة لتعزيز صورتيهما الذهنية وخدمة مصالحهما الخارجية، وإن كانت تجارب كل منهما تتسم بخصوصيات وتميزات معينة

مشكلة البحث

على الرغم من تزايد الاهتمام بمفهوم القوى الناعمة في السنوات الأخيرة، فإن دراسات السياسة الخليجية ما زالت تركز بشكل أكبر على الجوانب الاقتصادية والأمنية والعسكرية، بينما يتم إهمال تحليل أدوات

(1) جوزيف ناي، «القوة الناعمة: وسيلة النجاح في السياسة الدولية» (١٩٩٠).

القـوة الناعمـة ودورهـا في تعزيـز النفـوذ الخارجـي وصياغـة صـورة إيجابيـة للدولـة في العـالم

تنبـع مشـكلة هـذا البحـث مـن الحاجـة إلى فهـم أعمـق لكيفيـة توظيـف القـوى الناعمـة في الـدول الخليجيـة، وخاصـة في المملكـة العربيـة السـعودية ودولـة الإمـارات العربيـة المتحـدة، اللـتين تمـثلان نمـوذجين رائديـن في هـذا المجـال

فرغـم أن كلا الدولـتين تمتلـكان مقومـات كـبيرة مـن الثقافـة، والديـن، والإعلام، والدبلوماسـية، إلا أن الاخـتلاف في الـرؤى والسياسـات يجعـل مـن المهـم دراسـة كيـف يوظـف كل منـهما هـذه المقومـات لخدمـة أهدافـه الوطنيـة والسياسـية

كما تكمـن المشـكلة في غيـاب الدراسـات المقارنـة المتخصصـة التـي تُبرز أوجـه التشـابه والاخـتلاف بين التجربـتين السـعودية والإماراتية في اسـتخدام القـوة الناعمـة، وتحليـل مـدى فاعليـة هـذه الأدوات في تحقيـق التـأثير السـياسي والتنمـوي والإنسـاني على المسـتويين الإقليمـي والـدولي

أهمية الدراسة

تـأتي أهميـة هـذه الدراسـة مـن كونـه يسـلط الضـوء على دور القـوى الناعمـة في السياسـة الخليجيـة المعـاصرة، ويقـدّم مقارنـة تحليليـة بين التجربـتين السـعودية والإماراتيـة مـن حيـث الأدوات، والنتائـج، وأثـرهما في تعزيـز المكانـة الإقليميـة والدوليـة للدولـتين

وبذلـك، لا تقـتصر أهميـة هـذا البحـث على الجانـب التحليلي فحسـب، بـل تمتـد إلى المجـال العـملي والتطبيقـي، مـن خلال إظهـار كيـف يمكـن توظيـف القـوة الناعمـة كوسـيلة فعّالـة لتحقيـق التنميـة المسـتدامة، والـسلام، والتفاهـم الثقـافي في الخليـج والعـالم

أسئلة البحث

انطلاقًـا مـن مشـكلة البحـث وأهميتـه،

يسعى هذا البحث إلى الإجابة عن مجموعة من التساؤلات الرئيسة والفرعية التي تُوجِّه مسار الدراسة، وهي على النحو الآتي

1. ما المقصود بالقوة الناعمة، وما مكانتها في العلاقات الدولية المعاصرة؟
2. كيف تم توظيف مفهوم القوة الناعمة في السياسة الخليجية الحديثة؟
3. ما أبرز أدوات واستراتيجيات المملكة العربية السعودية في بناء قوتها الناعمة ضمن رؤية 2030؟
4. كيف نجحت دولة الإمارات العربية المتحدة في توظيف القوة الناعمة لتعزيز مكانتها الإقليمية والعالمية ضمن رؤية 2071؟
5. ما أوجه التشابه والاختلاف بين التجربتين السعودية والإماراتية في مجال القوة الناعمة؟
6. ما مدى فعالية توظيف القوى الناعمة في دعم الأهداف السياسية والتنموية للدولتين؟
7. كيف يمكن الاستفادة من التجربتين في صياغة سياسة خليجية موحدة تقوم على التكامل في مجالات القوة الناعمة؟

الاهـــداف

تهدف هذه الدراسة الأكاديمية إلى إجراء مقارنة معمقة بين التجربتين السعودية والإماراتية في مجال القوة الناعمة ضمن السياسة الخارجية الخليجية. سنبدأ باستعراض الإطار النظري لمفهوم القوة الناعمة وتطوره التاريخي، مع الإشارة إلى إسهام جوزيف ناي في صياغة هذا المفهوم وانتقاله إلى السياق العربي والخليجي. ثم سنتناول بالتفصيل تجربة المملكة العربية السعودية، مسلطين الضوء على رؤية السعودية 2030 وما انبثق عنها من مبادرات ثقافية وترفيهية، ودور الإعلام السعودي، والدبلوماسية الدينية (بوصف المملكة حاضنة الحرمين الشريفين)، وجهود المساعدات الخارجية وغيرها. يلي ذلك عرض تجربة الإمارات العربية المتحدة، مع التركيز على استراتيجية القوة الناعمة الإماراتية 2017 وما تبعها من خطوات كتفعيل الإعلام الدولي، وإبراز الجانب الثقافي والتكنولوجي، والابتكار والتعليم والمساعدات واستضافة الفعاليات الكبرى (مثل إكسبو 2020 وغيرها). بعد استعراض التجربتين، سنقدم مقارنة مفصّلة تشمل أدوات القوة الناعمة المستخدمة لدى كل طرف، ودرجة التنظيم المؤسسي لهذه الجهود، وكذلك مدى تأثير كل تجربة على الصعيد الدولي والصورة الذهنية التي كوّنتها كل دولة لدى الجمهور العالمي. وتشير الدلائل إلى تفوّق نسبي للتجربة الإماراتية في بناء قوة ناعمة أكثر فعالية وهيكلة وتأثيرًا على الساحة العالمية، وهو ما سنبرزه ونتقصّى أسبابه ضمن سياق المقارنة. وستتضمن الدراسة جداول مقارنة واضحة تلخّص أبرز أدوات وتجليات القوة الناعمة في البلدين بصورة مباشرة. كما نعتمد على بيانات وإحصاءات حديثة من مصادر رسمية – مثل التقارير الحكومية والمنظمات الدولية ومراكز الأبحاث – لضمان موثوقية المعلومات وحداثتها حتى عام 2025. وفي الخاتمة، سنستعرض أبرز النتائج المستخلصة من المقارنة، ونطرح توصيات عملية لتعزيز القوة الناعمة الخليجية عمومًا، ولتطوير التجربة السعودية خاصة على ضوء الدروس

المستفادة من النموذج الإماراتي

6-المنهجية:

- منهج البحث تحليلي وصفي
- أدوات جمع البيانات من خلال مراجعة الوثائق الرسمية وتقارير المجلس
- حدود البحث: المناطق الجنوبية

الإطار النظري لمفهوم القوة الناعمة وتطوره

مفهوم القوة الناعمة

صاغ الباحث الأمريكي جوزيف ناي مفهوم القوة الناعمة لأول مرة في مطلع تسعينيات القرن العشرين (عام 1990 تحديدًا) لوصف القدرة على الحصول على المطلوب عن طريق الجذب والإقناع بدلًا من الإكراه أو دفع الأموال[2]. يعبّر هذا المفهوم عن قدرة دولة ما على جعل الآخرين يرغبون فيما تريد هذه الدولة، عبر التأثير في تفضيلاتهم وتوجهاتهم من خلال عناصر غير مادية كالثقافة والفن والقيم السياسية والصورة الجذابة، عوضًا عن فرض الأمر بالقوة العسكرية أو العقوبات الاقتصادية. وبصياغة ناي الشهيرة، فإن القوة الناعمة تعني "أن تجعل الآخرين يريدون ما تريد أنت" دون إكراه أو ترغيب مادي[3]. وقد تزايد الاهتمام الدولي بهذا المفهوم بعد نهاية الحرب الباردة، حيث أدركت الدول أن الصورة الوطنية الجاذبة والسمعة الحسنة يمكن أن تكون مصدرًا مهمًا للنفوذ العالمي

ترتكز موارد القوة الناعمة – بحسب ناي – على ثلاثة عناصر رئيسية: الثقافة (بما تشمله من فنون وآداب وتراث وقيم مجتمعية)، والقيم السياسية (مثل مبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان إذا جسّدتها الدولة في سياساتها)، والسياسة الخارجية (عندما تُعتبر شرعية وأخلاقية وتحترم مصالح الآخرين)[4][5]. وكلما كانت ثقافة الدولة أكثر رواجًا عالميًا، وقيمها السياسية أكثر جاذبية، وسياساتها الخارجية أكثر اتساقًا مع المبادئ الأخلاقية الدولية، ازدادت قوّتها الناعمة وتأثيرها. ومن جهة أخرى، شهد مفهوم القوة الناعمة تطورًا مع مرور الوقت ليشمل جوانب جديدة؛ فقد ظهر نقاش حول مفهوم "القوة الذكية" (Smart Power) الذي ينادي بمزج القوة الناعمة مع القوة الصلبة ضمن استراتيجية متكاملة. كذلك اقترح بعض الباحثين توسيع نطاق القوة الناعمة ليشمل الاستثمارات الاقتصادية ذات البعد الاستراتيجي طويل الأجل. على سبيل المثال، تشير دراسات حديثة إلى أن استثمارات الدول في مشاريع بالبنية التحتية أو في أندية رياضية عالمية أو جامعات أجنبية يمكن أن تعزز صورتها وتجذب الآخرين إذا كانت تلك الاستثمارات

(2) مدونات الجزيرة حاضر القوة الناعمة ومستقبلها في العالم العربي | الجزيرة نت
https://www.aljazeera.net/blogs/2024/10/28

(3) مدونات الجزيرة حاضر القوة الناعمة ومستقبلها في العالم العربي | الجزيرة نت
https://www.aljazeera.net/blogs/2024/10/28

(4) The Rise of Soft Power in the Gulf: A Comparative Analysis of GCC Strategies - ORF Middle East
https://orfme.org/research/the-rise-of-soft-power-in-the-gulf-a-comparative-analysis-of-gcc-strategies

(5) The Rise of Soft Power in the Gulf: A Comparative Analysis of GCC Strategies - ORF Middle East
https://orfme.org/research/the-rise-of-soft-power-in-the-gulf-a-comparative-analysis-of-gcc-strategies

تُكسب الدولة سمعة إيجابية ولا تُستخدم لابتزاز مباشر([6])([7]). هذا الاتجاه ملحوظ في دول الخليج التي توظف صناديقها السيادية في استحواذات عالمية بارزة (كالأندية الرياضية أو الشركات التقنية) بهدف تعزيز مكانتها وصورتها الدولية، مما يُعد شكلًا من أشكال القوة الناعمة متى ما ولد انطباعات إيجابية عن الدولة[7]

في السياق العربي والخليجي، دخل مفهوم القوة الناعمة قاموس الاستراتيجيات التنموية والسياسية بصورة واضحة في العقدين الأخيرين. ورغم أن الكثير من الدول العربية تاريخيًا اعتمدت على أدوات ناعمة (كالقوة الثقافية لمصر عبر السينما مثلاً، أو قوة التأثير الديني للسعودية بحكم مكانتها الإسلامية)، فإن الوعي النظري والاستراتيجي المتكامل بهذا المفهوم تبلور بشكل أكبر في السنوات الأخيرة. فبعد عام 2010، ومع التحولات الإقليمية والاحتياج إلى تعزيز القوة الانطباعية للدول، بدأت دول الخليج خاصة بصياغة رؤى وخطط تستلهم مفهوم القوة الناعمة صراحةً. دولة الإمارات كانت سبّاقة إلى وضع استراتيجية وطنية للقوة الناعمة وتأسيس مجلس مختص بهذا الشأن عام 2017، مما يعكس تحول المفهوم إلى سياسة حكومية مؤسسية([8]). كذلك المملكة العربية السعودية، في إطار مشروع رؤية 2030 الإصلاحي، ضمّنت بشكل ضمني العديد من مستهدفات القوة الناعمة، مثل تحسين الصورة الذهنية للمملكة عالميًا وتعزيز التبادل الثقافي واستقطاب السياح وترسيخ موقعها كعاصمة للعالمين العربي والإسلامي. كما أبدت دول خليجية أخرى اهتمامًا بهذا النهج (مثل قطر عبر استضافة الفعاليات الرياضية والإعلامية الكبرى، أو عُمان عبر دبلوماسية السلام). وقد بدأت نتائج هذا التركيز الخليجي تظهر في مؤشرات دولية حديثة: على سبيل المثال، في مؤشر القوة الناعمة العالمي لعام 2023 الذي تصدره مؤسسة «براند فايننس" (Brand Fi-nance) البريطانية، جاءت الإمارات ضمن الـ10 الأوائل عالميًا والأولى عربيًا، تلتها السعودية في المرتبة 19 عالميًا (الثانية عربيًا) ثم قطر فالكويت فبقية الدول([9]). هذا التطور يؤكد أن دول الخليج تمكنت خلال فترة وجيزة نسبيًا من تحسين مكانتها على خريطة القوة الناعمة الدولية من خلال تبني أدوات مدروسة والتعلم من التجارب الرائدة عالميًا

باختصار، يمثّل مفهوم القوة الناعمة إطارًا مهمًا لفهم سلوكيات الدول الخليجية اليوم في سعيها لكسب «قلوب وعقول» الشعوب الأخرى. وفي الأقسام التالية، سنرى كيف طبّقت كل من السعودية والإمارات هذا المفهوم عمليًا، وأي نجاحات وأوجه قصور ظهرت في تجربتيهما حتى عام 2025.

(6) The Rise of Soft Power in the Gulf: A Comparative Analysis of GCC Strategies - ORF Middle East
https://orfme.org/research/the-rise-of-soft-power-in-the-gulf-a-comparative-analysis-of-gcc-strategies

(7) The Rise of Soft Power in the Gulf: A Comparative Analysis of GCC Strategies - ORF Middle East
https://orfme.org/research/the-rise-of-soft-power-in-the-gulf-a-comparative-analysis-of-gcc-strategies

(8) القوة الناعمة لدولة الإمارات العربية المتحدة – مجلة الجندي – مجلة عسكرية ثقافية شهرية
https://www.aljundi.ae/%D8%

(9) حاضر القوة الناعمة ومستقبلها في العالم العربي | الجزيرة نت https://www.aljazeera.net/blogs/2024/10/28/

المبحث الأول: القوة الناعمة في السياسة الخارجية السعودية

1. رؤية 2030 وإعادة تشكيل الصورة الوطنية

أطلقت المملكة العربية السعودية في عام 2016 رؤية السعودية 2030 كمشروع تحول وطني شامل يقوده ولي العهد الأمير محمد بن سلمان، وقد حملت الرؤية في طياتها أهدافًا تتجاوز الإصلاح الاقتصادي لتشمل البعد الثقافي والحضاري للمملكة. حرصت الرؤية على تعزيز مكانة المملكة عالميًا على الصعيد الثقافي من خلال برامج وفعاليات موجهة للجمهور الدولي)[10]). وقد أدركت القيادة السعودية أن تحسين الصورة الذهنية للمملكة وجعلها أكثر جذبًا وتقبّلًا عالميًا هو مفتاح لجذب الاستثمارات والسياح والكفاءات، فضلًا عن تعزيز الدور السياسي للمملكة. وعليه، بدأت خطوات غير مسبوقة لتحديث الهوية السعودية لتبدو أكثر انفتاحًا واعتدالًا: تم تخفيف القيود الاجتماعية التقليدية، والسماح بعودة أنشطة ترفيهية وثقافية كانت محظورة لعقود، والترويج لرؤية المملكة كبلد معتدل دينياً ومنفتح ثقافياً. ومن أبرز الخطوات في هذا السياق إنشاء الهيئة العامة للترفيه عام 2016 لتطوير قطاع الترفيه والفنون، وإنشاء الهيئة العامة للثقافة (والتي تحولت لاحقًا إلى وزارة للثقافة مستقلة عام 2018) لرعاية المبادرات الثقافية داخليًا وخارجيًا. وخصصت القيادة السعودية موارد ضخمة لدعم هذه التوجهات؛ فقد أعلنت المملكة في 2018 عزمها استثمار 240 مليار ريال سعودي (نحو 64 مليار دولار) في قطاع الترفيه خلال عشر سنوات([11])، بهدف بناء بنية تحتية ترفيهية عالمية وتنظيم فعاليات تستقطب الجمهور المحلي والدولي. هذه الخطة التمويلية العملاقة واكبها تخفيف للقيود الاجتماعية (مثل السماح بالحفلات السينمائية والغنائية والفعاليات المختلطة)، مما أدى إلى خلق حراك ثقافي غير معهود في المشهد السعودي[11]. ونتج عن ذلك تأسيس مهرجانات فنية ومواسم ترفيهية مثل «موسم الرياض» الذي بات منصة سنوية تستضيف فنانين عالميين وتجذب ملايين الزوار، مما يعرّف العالم بوجه جديد للسعودية أكثر حيوية وانفتاحًا. كل هذه الجهود تندرج في إطار صياغة هوية وطنية جديدة أكثر جاذبية عالميًا، وهو لبّ مفهوم القوة الناعمة. وقد أكدت وثائق الرؤية أن السعودية تطمح لأن تكون «عمق العالمين العربي والإسلامي» ومنارة للإعتدال والوسطية، ما يعني تعزيز قوتها الناعمة الدينية والثقافية بالتوازي مع قوتها الاقتصادية

2. الدبلوماسية الدينية وخدمة الحرمين الشريفين

تتمتع المملكة العربية السعودية بمكانة دينية فريدة لا تضاهى في العالم الإسلامي، كونها موطن الحرمين الشريفين في مكة

(10) اتجاهات النخب نحو مستقبل الدبلوماسية الثقافية السعودية في ظل رؤية ٢٠٣٠ – مركز القرار للدراسات الإعلامية (https://alqarar.sa/8777(2025

(11) الشرق الأوسط - السعودية ستستثمر ٦٤ مليار دولار في الترفيه https://aawsat.com/home/article/1183731

المكرمة والمدينة المنورة. هذه المكانة تمنح السعودية مصدرًا بالغ التأثير ضمن عناصر قوتها الناعمة على المستوى الإسلامي؛ إذ يفد إلى المملكة ملايين المسلمين سنويًا لأداء الحج والعمرة، ويعودون بذكريات وانطباعات عن جهود المملكة في خدمة ضيوف الرحمن وعن الحالة الحضارية فيها. تولي السعودية عناية كبيرة لاستثمار هذا الدور الديني في سياستها الخارجية عبر ما يمكن تسميته «الدبلوماسية الروحية». فمن جهة، تحرص على تسهيل قدوم الحجاج والمعتمرين من شتى أنحاء العالم وتقديم التسهيلات لهم، ومن جهة أخرى تنظم مؤتمرات إسلامية دولية مستغلة مكانتها كقائدة للعالم الإسلامي. على سبيل المثال، تستضيف المملكة مؤتمرات سنوية ولقاءات لرابطة العالم الإسلامي وهي منظمة تتخذ من مكة مقرًا لها، وتهدف لنشر مبادئ التسامح والحوار بين المذاهب والأديان. وفي السنوات الأخيرة، برزت هذه الرابطة بقيادة أمينها العام الشيخ محمد العيسى كذراع للدبلوماسية الدينية السعودية، حيث قامت بخطوات غير معهودة مثل تنظيم زيارة لوفد إسلامي سعودي إلى موقع محرقة الهولوكوست في بولندا عام 2020، والمشاركة في لقاءات حوار أديان عالمية. هذه التحركات ساهمت في تحسين صورة المملكة لدى الدوائر الغربية كدولة تحارب التطرف وتدعو للاعتدال. كذلك، تستضيف السعودية قممًا إسلامية تحت مظلة منظمة التعاون الإسلامي (التي يوجد مقرها في جدة) لمناقشة قضايا الأمة، مما يعزز نفوذها السياسي من خلال مكانتها الدينية. ومن الأمثلة البارزة، قمة مكة التي عقدت في 2019 بحضور عشرات القادة المسلمين لمناقشة القضايا الإقليمية. ولأن إدارة المشاعر المقدسة تمس وجدان كل مسلم، فإن نجاح السعودية في مشاريع توسعة الحرمين وتطوير البنية التحتية للحج يرتد إيجابًا على سمعتها. إذ ينظر كثيرون في العالم الإسلامي بتقدير لدور

المملكة في إعمار الحرمين وخدمة المسلمين، الأمر الذي يرسّخ قيادتها الروحية ويترجم إلى نفوذ سياسي ناعم تلقائي. في المقابل، واجهت السعودية تحديات في هذا المضمار، أبرزها تسييس بعض الأطراف لقضية الحج أو انتقاد إدارة المملكة لها، بيد أن الرياض سعت لتحييد هذه الانتقادات عبر التأكيد أن خدمة الحرمين أولوية سعودية قصوى تقوم على التفاني والإخلاص، بعيدًا عن الخلافات السياسية. إجمالًا، تشكل القوة الناعمة الدينية أحد أعمدة التأثير السعودي الخارجي؛ فصفة «خادم الحرمين الشريفين» التي يتلقب بها ملوك المملكة ليست مجرد لقب شرفي، بل ترجمة لسياسة قوة ناعمة فعّالة تستثمر المقدس الديني لتعزيز الاحترام والتأييد للمملكة في قلوب أكثر من مليار مسلم حول العالم

3. الثقافة والفنون والترفيه كأدوات للقوة الناعمة

شهدت المملكة تحولات ثقافية جذرية مع انطلاق رؤية 2030، حيث جرى إحياء الفنون وفتح المجال العام أمام صناعة الترفيه بعد عقود من الانغلاق. أدركت القيادة السعودية أن المنتج الثقافي والفني يُعد من أنجع وسائل التواصل مع شعوب العالم وتحسين الصورة النمطية عن البلد. ففي عام 2018، رُفعت الحظر عن دور السينما الذي استمر 35 عامًا، وبدأت الأفلام تُعرض مجددًا في الصالات السعودية. ولم يتوقف الأمر عند الاستهلاك الفني، بل جرى تشجيع إنتاج الأفلام السعودية وتطوير صناعة سينمائية محلية قادرة على المنافسة عالميًا. وتشير دراسة حديثة إلى أن الخبراء يعتبرون تنشيط قطاع الأفلام من العوامل المهمة للدبلوماسية الثقافية السعودية بنسبة 14.7%([12])، إذ يمكن عبر السينما نقل الثقافة السعودية للعالم بصورة حيّة وأكثر قربًا للمشاهد. وبالفعل، شهدت السنوات الأخيرة إطلاق مهرجانات سينمائية دولية في المملكة مثل مهرجان البحر الأحمر السينمائي الدولي الذي انطلق في جدة عام 2021، مستقطبًا مئات من صنّاع السينما العالميين. كما بدأت الأفلام السعودية تحصد جوائز في مهرجانات إقليمية ودولية، مما يروّج لهوية فنية سعودية ناشئة

إلى جانب السينما، ازدهرت مجالات ثقافية وفنية أخرى: الفنون التشكيلية باتت تحظى برعاية كبيرة مع إقامة معارض وفعاليات مثل بينالي الدرعية للفنون المعاصرة. الأدب وصناعة النشر تلقي دعمًا أيضًا حيث نظمت معارض كتاب دولية في الرياض وجدة. كما تم الاحتفاء بالموسيقى بإقامة حفلات لفنانين عرب وغربيين في مدن المملكة، بل تأسست أوركسترا سعودية وفرق موسيقية شبابية كظاهرة جديدة. وفي مجال التراث، أولت الدولة اهتمامًا بمواقعها التاريخية لتكون معالم جذب ثقافي: فمشروع إحياء مدينة العلا التاريخية وتحويلها إلى متحف مفتوح للطبيعة والتراث الإنساني (بالتعاون مع فرنسا) هو مثال على تسخير التراث لتعزيز القوة الناعمة. وأصبحت العلا تستضيف

(12) اتجاهات النخب نحو مستقبل الدبلوماسية الثقافية السعودية في ظل رؤية ٢٠٣٠ – مركز القرار للدراسات الإعلامية
https://alqarar.sa/8777

مهرجان «شتاء طنطورة» الذي يجمع بين الفن والتاريخ ويحضره زوار عالميون. كذلك مشروع بوابة الدرعية لإبراز تاريخ الدولة السعودية الأولى، ومشروع المسار السياحي للتاريخ الإسلامي في مكة والمدينة، كلها مبادرات لعرض المخزون الثقافي والتاريخي السعودي بصورة حديثة أمام العالم. وتقدّر رؤية 2030 أهمية السياحة الثقافية كجسر تواصل؛ وتهدف المملكة إلى استقبال 55 مليون زيارة من الخارج بحلول 2030[13]، كثير منها لأغراض دينية وثقافية، ما يعني انفتاح المجتمع السعودي بشكل غير مسبوق لاستقبال العالم على أرضه[14]. إن السياحة هنا ليست مجرد نشاط اقتصادي بل أداة قوة ناعمة أساسية لأي بلد، إذ تتيح للآخر التعرف مباشرة على ثقافة البلد ومجتمعه[15]. وعليه، أُطلقت التأشيرة السياحية الإلكترونية عام 2019 لتسهيل قدوم السياح الأجانب، وتُروج المملكة حاليًا لمعالمها الطبيعية (كالصحارى والشواطئ) والتراثية (مدائن صالح، حي الطريف في الدرعية المدرج على قائمة اليونسكو) عبر حملات إعلامية دولية لاستقطاب الزوار وإعطاء صورة مغايرة عن المملكة لم تكن متاحة سابقًا

إضافة لذلك، أنشئت مؤسسات تعنى بالحوار الثقافي العالمي مثل مركز الملك عبدالعزيز الثقافي العالمي (إثراء) الذي أنشأته أرامكو في الظهران ويفتح أبوابه لبرامج ثقافية دولية. أيضًا، مركز الملك عبد الله العالمي للحوار بين أتباع الأديان والثقافات (KAICIID) – رغم أنه مقره في فيينا – تشارك السعودية في دعمه مع دول أخرى، وهو يهدف لتعزيز الحوار بين الحضارات. وعلى صعيد التعليم والتبادل الأكاديمي، يعد برنامج الابتعاث الخارجي السعودي الذي أُطلق مطلع الألفية وأوفد مئات الآلاف من الطلبة السعوديين للدراسة في جامعات العالم، أحد أكبر برامج التبادل التعليمي عالميًا. ورغم أن هدفه الرئيس كان تنمية رأس المال البشري السعودي، إلا أنه حقق أثرًا ناعمًا بجعل هؤلاء السفراء الثقافيين الصغار ينشرون جوانب من ثقافة المملكة ويصححون بعض الانطباعات عن مجتمعها لدى المجتمعات التي درسوا فيها، وفي الوقت ذاته يعودون أكثر فهمًا للعالم وبالتالي أكثر انفتاحًا. كما بدأت السعودية في السنوات الأخيرة استقطاب جامعات عالمية لإنشاء فروع لها داخل المملكة، وتنظيم مؤتمرات علمية دولية، ما يسهم في وضعها على خريطة المعرفة العالمية ويعزز سمعتها الأكاديمية

4. الإعلام والتواصل الدولي

أدركت المملكة العربية السعودية قوة الإعلام في تشكيل التصورات وبناء القوة الناعمة منذ وقت مبكر، فهي تمتلك بعض أكبر وسائل الإعلام الموجهة للجماهير

(13) وقفة تأملية في نماذج القوة الناعمة في المملكة العربية السعودية https://araa.sa/index.php?option=com_content&view=article&id=6676:2023-07-30-10-14-31&catid=4677&Itemid=172

(14) وقفة تأملية في نماذج القوة الناعمة في المملكة العربية السعودية https://araa.sa/index.php?option=com_content&view=article&id=6676:2023-07-30-10-14-31&catid=4677&Itemid=172

(15) ملامح القوة الناعمة السعودية في ظل رؤية ٢٠٣٠ - جريدة الرياض https://www.alriyadh.com/1896409

العربيــة والإسلاميــة. فــالمملكة تســيطر على مجموعــة MBC الإعلاميــة (مركــز تلفزيــون الشرق الأوســط) التــي تُعــد أضخــم مجموعــة بــث فضائي في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، إذ تقــدم عشرات القنــوات المنوعــة والإخباريــة والترفيهيــة التــي يصــل محتواهــا لمئــات الملايين[16]. هــذه المنصــة الإعلاميــة الواســعة الانتشــار مكنــت الســعودية مــن التــأثير في الــرأي العــام العــربي عبر الدرامــا والبرامــج الترفيهيــة، وحتــى عبر تمريــر رســائل سياســية غير مباشرة تساهم في تشكيل صورة المملكة كدولــة رائــدة عربيًــا. إلى جانــب ذلــك، تمــول الســعودية قنــاة العربيــة الإخباريــة (بالشراكــة مــع الإمــارات حيــث مقرهــا في دبي) والتــي تنافــس قنــاة الجزيــرة في الفضــاء الإعلامــي الإخبــاري الناطــق بالعربيــة. وتعــد العربيــة واجهــة للموقــف الســعودي مــن قضايــا المنطقــة، ويســهم انتشــارها في تقديــم روايــة الريــاض ورســائلها السياســية إلى الجمهــور في المنطقــة. كما أطلقــت المملكــة قنــاة العربيــة بالإنجليزيــة وموقعهــا الإلــكتروني لتخاطــب الجمهــور الــدولي بلغــات مختلفــة. علاوة على ذلــك، ظهــر في 2020 مشروع إعلامــي ســعودي جديــد هــو قنــاة «الشرق للأخبــار» بشراكــة مــع مجموعــة بلــومبرغ Bloomberg العالميــة، وهــي قنــاة باللغــة العربيــة تركــز على الأخبــار الاقتصاديــة والسياســية موجهــة لجمهــور النخبــة في المنطقــة، وتتخــذ مــن دبي مقــرًا وتملكهــا المجموعــة الســعودية للأبحــاث والإعلام. هــذا التوســع في أدوات الإعلام يعكــس استراتيجية الســعودية في الدبلوماســية الإعلامية لتعزيــز قوتهــا الناعمــة، عبر إيصــال صوتهــا ورســالتها إلى الخــارج والتحكــم بالسرديــات المتعلقــة بهــا

وإلى جانــب القنــوات الفضائيــة، تمتلــك الســعودية صحفًــا ومنصــات رقميــة مؤثــرة موجهــة للجمهــور الــدولي مثــل صحيفــة «عرب نيــوز» و «ســعودي جازيــت» الصــادرتين بالإنجليزيــة، وتُســتخدم هــذه المنابــر لشرح سياســات المملكــة والدفــاع عنهــا وكســب تفهّم القــراء الأجانــب. كما تســتخدم الريــاض وســائل التواصــل الاجتماعــي بكثافــة؛ فعــدد مــن كبــار المســؤولين الســعوديين بــات لديهــم حســابات نشــطة تخاطــب الجمهــور العالمــي (مثــل وزيــر الخارجيــة والســفارات الســعودية في الخــارج)، وتنظــم حــملات عبر تــويتر ويوتيــوب للترويــج لمناســبات المملكــة (مــثلاً حملــة #الســعودية_العظمــى التــي انــتشرت عــام 2019). وتدعــم المملكــة المؤثريــن الوطنــيين للظهــور في الإعلام الجديــد لتقديــم صــورة حياتيــة حديثــة عــن المجتمــع الســعودي. أضــف إلى ذلــك، الاســتثمار الســعودي في شركات الإعلام والترفيــه العالميــة عبر صنــدوق الاســتثمارات العامــة (PIF) بــات يمثــل توجهًــا حديثًــا؛ حيــث اســتحوذ الصنــدوق على حصــص في شركات ألعــاب فيديــو عالميــة وشركات ترفيــه، مما يعطــي الســعودية حضــورًا في الصناعــة الثقافيــة العالميــة ويعــزز نفوذهــا فيهــا

لا يغيــب عــن الاســتراتيجيــة الإعلاميــة للســعودية الاســتعانة بشركات العلاقــات العامة الدوليــة لتحســين صورتهــا. فبعــد أحــداث مثــل قضيــة مقتــل جمال خاشــقجي 2018 التــي أضرت بســمعة المملكــة، لجــأت الريــاض إلى حــملات إعلاميــة مدروســة لتحســين صورتهــا في

(16) MBC Group - Wikipedia https://en.wikipedia.org/wiki/MBC_Group

الغرب، شملت إجراء مقابلات لقادتها مع شبكات غربية، وتمويل نشر مقالات إيجابية في صحف عالمية، واستضافة وفود صحفية غربية للاطلاع على التغييرات الداخلية. كما تعمل السعودية على إبراز قصص النجاح التنموية لديها عبر الإعلام، مثل مشاريع مدن المستقبل (نيوم وذا لاين) بوصفها رؤية مستقبلية جريئة للمملكة تُغيّر الانطباع التقليدي عنها. وقد نجحت هذه الجهود نسبيًا في دفة السرد العالمي تجاه السعودية من التركيز على قضايا سلبية (كحقوق المرأة سابقًا) إلى عرض قصص إصلاح وانفتاح جارية في عهد الملك سلمان وولي عهده. ولعل الدليل على ذلك تحسّن ترتيب السعودية في مؤشرات السمعة الدولية تدريجيًا؛ فقد صعدت المملكة إلى المرتبة 18 في مؤشر القوة الناعمة العالمي 2024 بعدما كانت 26 في 2020([17])([18])، مما يشير إلى تنامي تأثير جهودها الإعلامية والدبلوماسية([19]). ورغم أنه لا يمكن إرجاع هذا التحسن لعامل الإعلام وحده، لكنه بالتأكيد كان عنصرًا مساندًا هامًا

5. المساعدات الخارجية والعمل الإنساني

تُعد الدبلوماسية الإنسانية والمساعدات الخارجية ركيزة تقليدية من ركائز القوة الناعمة السعودية، إذ دأبت المملكة لعقود على منح القروض الميسرة والهبات والمعونات للدول الشقيقة والصديقة، وخاصة في العالمين العربي والإسلامي. وتظهر البيانات أن السعودية تصنف ضمن أكبر الدول المانحة عالميًا. فبحسب منصة البيانات السعودية الرسمية للمساعدات، بلغ إجمالي ما قدمته المملكة من مساعدات إنمائية وإنسانية حتى منتصف عام 2025 حوالي 528.4 مليار ريال سعودي (ما يعادل 140.9 مليار دولار) ([20]). هذا الرقم الضخم يضع المملكة بين أكبر 5 مانحين إنسانيين في العالم([21])، وهو سجل تؤكد عليه المؤسسات الدولية. وتشير بيانات منصة المساعدات إلى أن مصر تصدرت قائمة الدول المستفيدة من المعونات السعودية بإجمالي 32.5 مليار دولار، تلتها اليمن بحوالي 27.7 مليار، ثم باكستان بنحو 13.2 مليار، ثم سوريا والعراق وفلسطين بمبالغ أقل([22]). وتعكس هذه التوزيعات حرص السعودية على دعم الدول العربية والإسلامية المحورية ومساعدتها في أزماتها الإنسانية والاقتصادية

المهم أن المملكة تربط بين دورها الإنساني وأهداف رؤيتها الاستراتيجية؛ حيث تنص رؤية 2030 على تعزيز الشراكات الدولية وترسيخ مكانة المملكة كركيزة للسلام والاستقرار الإقليمي والدولي([23]). ويأتي نشاط المملكة الإغاثي تجسيدًا لهذه الرؤية بسعيها لتكريس صورة "المملكة الإنسانية".

(17) ORF 18/ – جدول مؤشر القوة الناعمة (٢٠٢٠-٢٠٢٥) (٢٠٢٥).

(18)

(19) PlaceBrandObserver – ترتيب السعودية في مؤشر ٢٠٢٤ (٢٠٢٤).

(20) Saudi Gazette /23/25/ 22/ | Saudi Arabia is among world's top donors with assistance worth SR528 billion https://www.saudigazette

21 / 23 رؤية 2030ومنصة المساعدات السعودية – سعوديجازيت (٢٠٢٥).

فـخلال أزمـة وبـاء كورونـا (كوفيـد-19) مـثلاً، بـادرت السـعودية لتقديـم مسـاعدات طبيـة ولوجسـتية لـدول محتاجـة، وقـد اسـتضافت قمـة افتراضيـة لمجموعـة العشريـن عـام 2020 تركـزت على تنسـيق الجهـود لمواجهـة الجائحـة، معلنـةً مسـاهمات ماليـة سـخية لصناديـق الاسـتجابة الدوليـة. وفي اليمـن، ورغـم انخـراط السـعودية عسـكريًا هنـاك، حرصـت على الظهـور بمظهـر الداعـم الإنسـاني الأول لليمنـيين، فأنشـأت في 2015 مركـز الملـك سـلمان للإغاثـة والأعمال الإنسـانية (KSre-lief) الـذي تـولى إرسـال مئـات القوافـل مـن المسـاعدات الغذائيـة والطبيـة إلى اليمـن وغيرهـا مـن الـدول المنكوبـة. وبحلـول 2025، باتـت السـعودية وفـق مكتـب الأمـم المتحـدة لتنسـيق الشـؤون الإنسـانية واحـدة مـن أكبر 5 مانـحين إنسـانيين على مسـتوى العـالم لعـدة سـنوات متتاليـة. ولا يقـتصر العطـاء السـعودي على محيطهـا القريـب، بـل يمتـد ليشـمل دولًا في آسـيا وأفريقيـا وحتـى المسـاهمات في جهـود الإغاثـة الدوليـة عبر الأمـم المتحـدة (مثـل الـتبرع لجهـود إغاثـة المتضرريـن من تسـونامي المحيـط الهنـدي 2004 أو زلازل باكسـتان وتركيـا وأفغانسـتان في سـنوات مختلفـة). وتعـزز المملكـة شـفافية ورؤيـة جهودهـا الإغاثيـة عبر منصـات حديثـة؛ إذ دشـنت عـام 2018 منصـة "المسـاعدات السـعودية" الإلكترونيـة لتوثيـق وحصر كافـة المسـاعدات المقدمـة عبر الجهـات الحكوميـة والخيريـة([24]) ([25]). وتهـدف هـذه الخطـوة إلى إظهـار حجـم إسـهام المملكـة العالمـي، وتنسـيق الجهـود بين الجهـات المانحـة المتعـددة في المملكـة (وزارات الماليـة والخارجيـة، الصنـدوق السـعودي للتنميـة، مركـز الملـك سـلمان للإغاثـة، وغيرهـا) [24][25]. وقـد أصبحـت هـذه المنصـة مرجعًـا دقيقًـا يجعـل دور السـعودية أكثر بـروزًا على السـاحة الدوليـة كدولـة معطـاءة ومسـؤولة. ولا شـك أن سـخاء المملكـة المالي يعـزز رصيدها مـن الامتنـان والتـأثير في الـدول المسـتفيدة، مـا يترجـم إلى دعـم سـياسي ومكانـة معنويـة أقوى للريـاض على المـدى الطويـل. وهـذا يظهـر جليًا في علاقاتهـا مـع دول مثـل مصر وباكسـتان؛ حيـث يـشير كـثيرون في تلـك البلـدان إلى السـعودية بوصفهـا "الشـقيق الأكبر" الـذي يهـب للمسـاعدة وقـت الضيـق، مما يولّـد مشـاعر إيجابيـة تجاههـا بين شـعوب تلـك الـدول

6. الرياضـة والفعاليـات الـكبرى كمنصـة للقـوة الناعمـة

في السـنوات الأخيرة، بـرز الاسـتثمار السـعودي في قطـاع الرياضـة واسـتضافة الأحـداث الـكبرى كأحـد مكونـات القـوة الناعمـة الحديثـة للمملكـة. فبـدءًا مـن عـام 2018 تقريبًـا، انخرطـت السـعودية في مـا سُـمي أحيانًا بـ»الدبلوماسـية الرياضية»، إدراكًا منهـا للشـعبية الجارفـة للرياضـة عالميًـا ومـا تجلبـه الأحـداث الرياضيـة مـن انتبـاه دولي وإشـادة تنظيميـة. اسـتضافت المملكـة بطولات ومنافسـات إقليميـة وعالميـة في عـدة ألعـاب: نظمـت بطولـة العالم للشـطرنج 2017، وسـباق الفورمـولا إي للسـيارات الكهربائيـة في الدرعيـة منـذ 2018، واسـتضافت نهـائي السـوبر الإيطالي

والإسباني في كرة القدم لعدة سنوات، كما استضافت مباريات ملاكمة عالمية (مثل نزال بطولة العالم للوزن الثقيل بين آنتوني جوشوا وأندي رويز في الدرعية عام 2019). وفي 2020، احتضنت السعودية رالي داكار الصحراوي الشهير، لتكون أول دولة آسيوية تستضيف هذا السباق التاريخي، واستمرت في تنظيمه سنويًا. وعلى مستوى الخطط المستقبلية، فازت الرياض في أواخر 2023 بحق استضافة معرض إكسبو الدولي 2030، كما فازت المملكة بحق استضافة دورة الألعاب الآسيوية الشتوية 2029 في مدينة نيوم (في خطوة مفاجئة تهدف لإبراز نيوم كوجهة مستقبلية حتى في رياضات الثلج). كذلك دخلت السعودية السباق الرياضي الكبير عبر صندوق الاستثمارات العامة الذي استحوذ عام 2021 على نادي نيوكاسل يونايتد الإنجليزي العريق، وفي 2023 أطلقت المملكة دوري كرة قدم محلي معزز بالنجوم العالميين باستقطاب لاعبين كبار (مثل كريستيانو رونالدو وكريم بنزيما وغيرهم) إلى أنديتها، في محاولة لوضع دوريها ضمن دائرة الاهتمام العالمية. وأيضًا قامت عبر صندوق الاستثمار بإطلاق مبادرة «جولة LIV Golf" للغولف لمنافسة الجولة الأمريكية PGA، قبل أن تندمج لاحقًا مع الجولة الأمريكية في صفقة تعكس النفوذ المالي السعودي. كل هذه التحركات الرياضية لم يكن الهدف منها رياضيًا صرفًا فقط، بل كانت مدفوعة برؤية أن الرياضة لغة عالمية يمكن عبرها مخاطبة الشعوب وتحسين

صورة السعودية لدى جمهور الرياضة الدولي، فضلًا عن كسر الصورة النمطية القديمة عن المملكة. وقد بدأت هذه الاستراتيجية تؤتي ثمارها؛ فتنظيم الأحداث أتاح لآلاف الرياضيين والزوار الأجانب زيارة المملكة وخوض تجربة مباشرة فيها، ونقل العديد منهم انطباعات إيجابية عن مستوى التطور والتنظيم وحفاوة الاستقبال([26]). ووفق الدراسة حول الدبلوماسية الثقافية المشار إليها سابقًا، اعتُبرت استضافة الفعاليات الدولية (بما يشمل الرياضية والثقافية) أكثر العوامل تأثيرًا في جهود القوة الناعمة السعودية بنسبة 22.5%[26]، وهو ما يؤكد صحة الرهان السعودي على هذا المسار. كما حققت المملكة تغطية إعلامية دولية واسعة باستضافتها مثلا قمة مجموعة

(26) اتجاهات النخب نحو مستقبل الدبلوماسية الثقافية السعودية في ظل رؤية ٢٠٣٠ – مركز القرار للدراسات الإعلامية(2025. https:// alqarar.sa/8777

العشرين (G20) في الرياض عام 2020 – رغم أنها عُقدت افتراضيًا بسبب الجائحة – لكنها حملت اسم المملكة وجعلت الأنظار تتجه إلى الإصلاحات التي تجري فيها كجزء من النقاشات. وإلى جانب ذلك، استضافت السعودية في 2023 بطولة العالم للأندية لكرة القدم، وفي 2024 تستضيف كأس آسيا لكرة القدم، وتقدمت بملف لاستضافة كأس العالم 2034. هذه السلسلة من الأحداث الرياضية الكبرى تضع المملكة باستمرار في دائرة الضوء العالمي وتعزز رصيدها من الثقة والقبول كبلد قادر على التنظيم وكوجهة للفعاليات الدولية، ما يصب مباشرة في تعزيز قوتها الناعمة

في المحصلة، تُظهر تجربة السعودية في مجال القوة الناعمة صورة دولة كبرى تمر بمرحلة انتقالية: توظف مقوماتها التقليدية (الدين والثروة والموقع) بذكاء عبر تحديثها وإعادة تقديمها بروح عصرية، وتتبنى في الوقت ذاته أدوات جديدة تمامًا لم تعهدها في تاريخها (كالترفيه والرياضة والفنون)، وكل ذلك ضمن مشروع وطني طموح (رؤية 2030) يهدف إلى تحويل المملكة إلى دولة مؤثرة ليس فقط بقوتها النفطية والاقتصادية بل أيضًا بتراثها وثقافتها وإسهامها الحضاري. ورغم التحديات التي واجهتها – سواء داخلية تتعلق بتغيير المفاهيم الاجتماعية، أو خارجية تتعلق بإقناع العالم بمصداقية هذا التحول – فإن المؤشرات تدل على تقدم ملحوظ: فترتيب المملكة في مؤشرات القوة الناعمة يتحسن عامًا بعد عام[17][18]، والانفتاح السياحي والثقافي بدأ يغيّر الكثير من الصور النمطية القديمة عن السعودية. لكن تبقى التجربة السعودية في مراحلها الأولى نسبيًا، ويمكن القول إنها تبني الأساس الآن لقوة ناعمة سيكون ذروة تأثيرها في المستقبل المنظور عندما تنضج هذه المبادرات وتتراكم نجاحاتها

المبحث الثاني: القوة الناعمة في السياسة الخارجية الإماراتية

1. الإستراتيجية الوطنية والمؤسسية للقوة الناعمة الإماراتية

على النقيض من الحالة السعودية التي برز فيها مفهوم القوة الناعمة ضمن رؤية تحولية داخلية، انتهجت دولة الإمارات العربية المتحدة مقاربة مبكرة واستباقية في تبني مفهوم القوة الناعمة كإستراتيجية دولة. فقد أعلنت القيادة الإماراتية في أبريل 2017 عن تشكيل «مجلس القوة الناعمة لدولة الإمارات» برئاسة وزير شؤون مجلس الوزراء آنذاك محمد القرقاوي، وعضوية عدد من الوزراء والمسؤولين الكبار([27]) ([28]). مهمة هذا المجلس رسم السياسة العامة لاستراتيجية القوة الناعمة للإمارات، وبلورة منظومة وطنية متكاملة تشمل الجهات الحكومية والخاصة والأهلية لنقل قصة الإمارات إلى العالم بطريقة جديدة([29])

(27) / 28/29/30/31/34/35 محمد بن راشد يعلن تشكيل «مجلس القوة الناعمة لدولة الإمارات» لتعزيز مكانتها إقليميا وعالميا | وكالة أنباء الإمارات
https://www.wam.ae/ar/article/hszr5d2p-

([30]). وقد عُهِد إلى مكتب الدبلوماسية العامة في وزارة شؤون مجلس الوزراء بإعداد هذه الاستراتيجية بالتنسيق مع الجهات المعنية([31]). بالفعل، بدأ المجلس في سبتمبر 2017 بوضع استراتيجية القوة الناعمة الإماراتية وحدد لها أربعة أهداف رئيسية[8]: (1) تكوين هوية موحدة للدولة في كافة المجالات تعكس صورتها المميزة، (2) ترسيخ مكانة الإمارات كبوابة إقليمية للعالم ووجهة رئيسية في الشرق الأوسط، (3) بناء شبكة علاقات عالمية تفاعلية مع الأفراد والمؤسسات عبر الدبلوماسية الشعبية، (4) تعزيز سمعة الإمارات كدولة حديثة منفتحة متسامحة ومحبة للخير[8]. هذه الأهداف عكست فهمًا عميقًا لعناصر القوة الناعمة المطلوبة: الهوية المتماسكة داخليًا والجذابة خارجيًا، والاستفادة من موقع الإمارات كمركز أعمال وسفر، وتفعيل الاتصال الشعبي عالميًا، وتسويق قيم الدولة الجوهرية (كالحداثة والتسامح والإحسان)

ولخدمة هذه الاستراتيجية، أنشأت الإمارات خلال السنوات التي سبقتها وتلتها عددًا من الهياكل المؤسسية والبرامج الداعمة: ففي فبراير 2016 استُحدثت وزارة للتسامح (تولاها الشيخ نهيان بن مبارك ثم الشيخة لبنى القاسمي) بهدف ترسيخ قيمة التسامح كميزة متأصلة في المجتمع الإماراتي([32]). وهذه خطوة فريدة تعكس اهتمام الإمارات بتأكيد صورة مجتمعها المتنوع والمنفتح، حيث يعيش على أرضها أكثر من 200 جنسية بانسجام واحترام[32]. وأطلقت الدولة البرنامج الوطني للتسامح وسنّت ميثاقًا للتسامح وعينت سفراء للتسامح، وكلها جهود لترسيخ قيمة مجتمعية يمكن تسويقها خارجيًا كصفة إيجابية بارزة للإمارات. أيضًا عام 2016، استحدثت الإمارات وزارة للسعادة، وكلّفت بها عهود الرومي، في سابقة عالمية تهدف لجعل مؤشر السعادة معيار أداء حكومي([33]). ورغم أن فكرة "السعادة" داخلية الطابع، إلا أن لها بُعدًا خارجيًا أيضًا في إظهار الإمارات كدولة تهتم برفاه الإنسان، مما يعزّز جاذبيتها. ولاحقًا دمجت الوزارة تحت وزارة أوسع (تنمية المجتمع)، لكن البرنامج الوطني للسعادة وجودة الحياة استمر. كذلك تم استحداث وزارة للشباب (بوزيرة شابة عمرها 22 عامًا هي شما المزروعي) لإبراز دور الشباب، وتعيين وزير دولة للذكاء الاصطناعي (عمر العلماء) كأول وزير من نوعه عالميًا، وكلها رسائل قوية للخارج بأن الإمارات تتبنى فكرًا حديثًا وشابًا وتعد نفسها للمستقبل

من جهة أخرى، عملت الإمارات على توحيد خطابها وهويتها خارجيًا. ففي عام 2020 كشفت عن مشروع الهوية الإعلامية المرئية للإمارات عبر شعار «الخطوط السبعة» الذي صُمم ليمثل الإمارات السبعة في خطوط ملونة ترمز للطموح والابتكار، وتم استخدام هذا الشعار في الترويج السياحي والاستثماري للدولة عالميًا. كما أطلقت

(32) مجلة الجندي – دور وزارة التسامح في القوة الناعمة الإماراتية (٢٠٢٥).

(33) 33 مجلة الجندي – وزارة السعادة واستراتيجية السعادة (٢٠٢٥).

شـعارًا دبلوماسـيًا بعنـوان «قـوة الاتحـاد» ليسـتخدم في الفعاليـات الرسـمية بالخـارج. وإجمالًا، يمكـن القـول إن الإمـارات وضعـت هيكلـة مؤسسـية متقدمـة لترجمـة مفهـوم القـوة الناعمـة إلى سياسـات وإجـراءات عملية، بـدءًا مـن أعلى هـرم الحكومـة (مجلـس القـوة الناعمـة تحـت إشراف مجلـس الـوزراء) وانتهاءً بالبرامـج التنفيذيـة والـوزارات المختصـة. وقـد صرّح الشـيخ محمـد بـن راشـد آل مكتـوم، نائـب رئيـس الدولـة حاكـم دبي، عنـد إطلاق المجلـس بـأن الإمـارات التـي تمتلـك قـوة عسـكرية واقتصاديـة، تسـتعد اليـوم لبنـاء منظومـة القـوة الناعمـة لترسـيخ سـمعتها العالميـة خدمـةً لمصالـح شـعبها طويلـة الأمـد([34]). وأكـد أن الاسـتثمار في كسـب "محبـة واحترام الشـعوب الأخـرى" هـو ضمان لعلاقـات دائمـة على المسـتويات الاقتصاديـة والسـياحية والاسـتثمارية([35]). وهـذه النظـرة تلخـص إيمـان القيـادة الإماراتيـة العميـق بـأن السـمعة الجيـدة رصيـد إستراتيجـي لا يقـل أهميـة عـن المـوارد الماديـة

2. الثقافة والفنون والتراث كجسور عالمية

انتهجـت الإمـارات منـذ تأسيسـها سياسـة الانفتـاح الثقـافي والاسـتفادة مـن التنـوع الديموغـرافي على أرضهـا لبنـاء مشـهد ثقـافي عالمـي. وقـد تصاعـد هـذا النهـج بوضـوح في العقديـن الأخيريـن ضمـن مسـاعي تعزيـز القـوة الناعمـة. تبنـت الإمـارات استراتيجيـة دبلوماسـية ثقافيـة نشـطة ترتكـز على إنشـاء مؤسسـات ثقافيـة عالميـة المسـتوى واسـتضافة أحـداث ثقافيـة ضخمـة. أبـرز مثـال على ذلـك كان افتتـاح متحـف اللوفـر أبوظبـي عـام 2017، كثمـرة اتفاقيـة ثقافيـة مـع فرنسـا، ليكـون أول متحـف لوفـر خـارج باريـس. هـذا الصرح الثقـافي وضـع أبوظبـي على خريطـة السـياحة الثقافيـة العالميـة وجسـد رسـالة الإمـارات في حـوار الحضـارات، حيـث يعـرض قطعـا مـن مختلـف الحضـارات الإنسـانية في صرح مـعماري فريـد. وتعمـل أبوظبـي أيضًـا على إنشـاء متحـف جوجنهايـم أبوظبـي للفـن الحديـث بالتعـاون مـع مؤسسـة سـولومون جوجنهايـم، بمـا يعـزز مكانتهـا كعاصمـة ثقافيـة إقليميـة

كما أصبحـت الإمـارات مقـرًا لمعـارض فنيـة عالميـة مثـل معـرض «آرت دبي» الـدولي للفنون المعاصرة الـذي ينظـم سـنويًا ويجتـذب فنانين وجامعـي أعمال مـن شـتى أنحـاء العـالم، ومعـرض أبوظبـي الفنـي. وأثبتـت إمـارة الشـارقة حضـورًا بـارزًا عبر بينـالي الشـارقة الـذي يُقـام منـذ 1993 ويُعـد مـن أهـم المعـارض الفنيـة في الشرق الأوسـط. إلى جانـب الفنـون البصريـة، هنـاك الفعاليـات الأدبيـة الـكبرى مثـل مهرجـان طيران الإمـارات للآداب الـذي يقـام في دبي سـنويًا ويسـتضيف عشرات الكتّـاب العالمـيين، ومعـرض الشـارقة الـدولي للكتـاب الـذي بـات أحـد أكبر معـارض الكتـب في العـالم مـن حيـث زواره وصفقاتـه. وقـد توّجـت اليونسـكو جهـود الشـارقة باختيارهـا

(34) / ٣٥ محمد بن راشد يعلن تشكيل «مجلس القوة الناعمة لدولة الإمارات» لتعزيز مكانتها إقليميا وعالميا | وكالة أنباء الإمارات https://www.wam.ae/article/r2d5p-hszr

عاصمة عالمية للكتاب لعام 2019. وفي المجال الموسيقي والمسرحي، تستضيف الإمارات عروض أوركسترا عالمية (كأوركسترا باريس وأوركسترا نيويورك التي قدمت حفلات في أبوظبي)، وتنظم مهرجانات موسيقية مثل مهرجان أبوظبي للموسيقى الكلاسيكية

وإدراكًا لأهمية التراث، قامت الإمارات بجهود للحفاظ على تراثها المحلي والتعريف به عالميًا: فقد نجحت في إدراج عدد من عناصر تراثها غير المادي ضمن قائمة اليونسكو، مثل فن العيالة التقليدي وفن الصقارة (بالاشتراك مع دول أخرى) والقهوة العربية والمجالس الاجتماعية وغيرها. كما تم إدراج مواقع تراثية إماراتية على قائمة التراث العالمي مثل مدينة العين التاريخية. وعززت أبوظبي حضورها في مجال الآثار والتراث العالمي باستضافة المؤتمر الدولي للحفاظ على التراث الثقافي وإنشاء تحالف دولي لحماية التراث في مناطق النزاع (AL-IPH) بالتعاون مع فرنسا. هذه المساهمات ترسل رسالة أن الإمارات شريك دولي في حفظ التراث الإنساني، مما يكسبها احترامًا دوليًا ويعزز قوتها الناعمة الثقافية

ولا يمكن إغفال أن واحدة من أعظم القوى الناعمة الثقافية للإمارات هي واقعها الاجتماعي المتنوع. فوجود أكثر من 200 جنسية تعيش وتعمل في الإمارات شكل فسيفساء ثقافية فريدة[36]، جعلت من الدولة «مجتمعًا عالميًا مصغرًا» ومختبرًا للتعايش بين مختلف الأعراق والأديان. هذا التنوع مقترن بسياسات رسمية تشجعه (مثل إلغاء الكثير من القيود الاجتماعية، وسن قوانين تجرّم الكراهية والتمييز، واستحداث وزارة للتسامح كما سلف) خلق بيئة من التسامح والتعايش أصبحت جزءًا من العلامة الوطنية للإمارات. وقد أكد تقرير لمركز المستقبل للأبحاث أن الإمارات عملت على أن تكون «مركزًا ثقافيًا فريدًا في المنطقة» عبر بناء قاعدة ثقافية متنوعة للغاية على أرضها[37][38]. اليوم تُصوَّر الإمارات عالميًا كنموذج للاندماج الثقافي، حيث معابد الهندوس بجوار مساجد المسلمين وكنائس المسيحيين، والجميع يمارسون شعائرهم بحرية وأمان. وتوج هذا النهج بحدث تاريخي هو زيارة البابا فرنسيس لأبوظبي في فبراير 2019 كأول بابا للفاتيكان يزور شبه الجزيرة العربية، وتوقيع وثيقة الأخوة الإنسانية بينه وبين شيخ الأزهر في الإمارات[39]. كان لهذا الحدث أصداء عالمية بالغة الإيجابية[40]، واعتُبر شهادة على الدور الإماراتي في تعزيز الحوار بين الأديان. وقد اختارت الإمارات لاحقًا بناء بيت العائلة الإبراهيمية في أبوظبي يضم كنيسة ومسجد وكنيس جنبًا إلى جنب، كرمز للتعايش الديني. هذه المبادرات الثقافية والقيمية أسهمت بشكل

(36) Future Center - How Expo 2020 Dubai strengthens the UAE's soft power 38 /37/؟ https://futureuae.com/enus/Mainpage/Item/6723/strategic-gains-how-expo-2020-dubai-strengthens-the-uaes-soft-power

(37) 39 ركز المستقبل - وثيقة الأخوة الإنسانية وأثرها (٢٠٢١).

(38) 40 مركز المستقبل - اتفاقات إبراهيم ودعم مكانة الإمارات (٢٠٢١).

ملموس في تعزيز صورة الإمارات كـ«عاصمة للتسامح العالمي»، وهي عبارة كثيراً ما تتردد في الأدبيات الدولية والإعلام عند الحديث عن الدولة[41][42]

أما على صعيد القوة الناعمة عبر التعليم والعلوم، فقد نجحت الإمارات في استقطاب فروع لأهم الجامعات العالمية: جامعة نيويورك أنشأت حرماً في أبوظبي، وجامعة السوربون افتتحت فرعاً لها أيضًا، إلى جانب فروع لجامعات مرموقة أخرى. وهذا جعل الإمارات وجهة تعليمية إقليمية يدرس فيها الآلاف من دول مختلفة، وينقلون انطباعات إيجابية عنها. إضافة لذلك، استثمرت الإمارات في مwشاريع علمية ملهمة عززت صورتها كدولة عربية سبّاقة في الابتكار، مثل مشروع مسبار «الأمل» إلى كوكب المريخ الذي انطلق عام 2020 ودخل مدار المريخ بنجاح في فبراير 2021 كأول مهمة عربية للكوكب الأحمر. وقد أشادت صحف العالم بهذا الإنجاز العلمي، وساهم في ترسيخ سمعة الإمارات كدولة علمية متقدمة. أيضًا أطلقت الإمارات برنامج رواد الفضاء الإماراتي الذي أثمر عن إرسال أول رائد فضاء إماراتي (هزاع المنصوري) إلى محطة الفضاء الدولية عام 2019، وتخطط لإرسال رائد آخر لمدة أطول. هذه الإنجازات جذبت اهتمامًا عالميًا وشكلت «قوة ناعمة علمية» للإمارات، إذ أوصلت رسالة مفادها أن الدول العربية قادرة على المساهمة في التقدم العلمي للبشرية. كما استضافت الإمارات فعاليات علمية دولية مثل مؤتمر الأمم المتحدة للمناخ COP28 في نوفمبر 2023، حيث حضر قادة وزعماء العالم لمناقشة قضية عالمية في رحاب الإمارات[43]. وكان اختيار الإمارات لاستضافة هذه القمة تتويجًا لجهودها في ملف الطاقة النظيفة (استضافة مقر الوكالة الدولية للطاقة المتجددة - إيرينا)، وتعهدها بتحقيق الحياد الكربوني في 2050، وغيرها من المبادرات التي أكسبتها احترامًا كمساهم دولي في قضايا المناخ والاستدامة[44][45]

3. الإعلام الدولي والترويج لصورة الإمارات

اعتبرت الإمارات الإعلام والتواصل العالمي أدوات جوهرية في ترسيخ قوتها الناعمة. فمنذ مطلع الألفية الجديدة، حرصت على تأسيس منافذ إعلامية تستهدف الجمهور الدولي بلغات متعددة. في عام 2007، أطلقت حكومة أبوظبي صحيفة «ذا ناشيونال» (The National) اليومية باللغة الإنجليزية لتكون منصة أخبار وتحليلات تعرض وجهة النظر الإماراتية وتنقل قصص النجاح في الدولة إلى القراء الأجانب. كما أنشأت أبوظبي في 2012 قناة «سكاي نيوز عربية» كشراكة بين شركة أبوظبي للإعلام وشبكة سكاي البريطانية، لتكون قناة إخبارية إقليمية بلغتين

(41) القوة الناعمة لدولة الإمارات العربية المتحدة – مجلة الجندي – مجلة عسكرية ثقافية شهرية 42/ https://www.aljundi.ae/

(42) UAE Ranks Among Top 10 in Brand Finance Global Soft Power Index 2025 - ATB Legal 43/44/45 https://atblegal.com/blog/uae-tenth-brand-finance-soft-power-index-2025

(العربيــة والإنجليزيــة عبر موقعهــا) تقــدم صــورة متوازنــة عــن قضايــا المنطقــة وتســهم في إبــراز مواقــف الإمــارات. وإلى جانــب ذلــك، تعمــل وكالــة أنبــاء الإمــارات الرســمية «وام» على بــث أخبارهــا بخلاصــات متعــددة اللغــات (العربيــة، الإنجليزيــة، الفرنســية، الروســية، الصينيــة وغيرهــا) لــضمان وصــول الرســالة الإماراتيــة لأوســع نطــاق عالمــي. كما دشــنت الإمــارات خلال معــرض إكســبو 2020 منصــة إعلاميــة متقدمــة هــي «اســتوديو إكســبو – Studio Expo" قدمــت محتــوى رقميــا متنوعــا بعــدة لغــات للترويــج لفعاليــات المعــرض عالميًــا، واســتمر بعضهــا بعــد انتهــاء المعــرض لدعــم دبلوماســية الإمــارات العامــة

وتميــزت الإمــارات أيضًــا في جانــب العلاقــات العامــة الدوليــة؛ فــالشركات والمؤسســات الإماراتيــة تســتعين بــكبرى شركات العلاقــات العامــة العالميــة لتنظيــم حــملات ترويجيــة لصــورة الإمــارات في الخــارج، خصوصًــا في الــدول الغربيــة. تُظهــر التقاريــر أن الإمــارات أنفقــت مبالــغ كــبيرة على التعاقــد مــع شركات لــوبي وعلاقــات عامــة في واشــنطن ولنــدن لتحــسين ســمعتها والتــأثير على صنــاع القــرار هنــاك لصالــح مواقفهــا (كما في ســياق الــخلاف مــع قطــر 2017-2021 أو حــرب اليمــن). لكــن جانبًــا أكثر إشراقًــا هــو توظيــف الإمــارات لصورتهــا كبيئــة حاضنــة للأحــداث العالميــة في الترويــج الإعلامــي: فهــي تســتضيف باســتمرار مؤتمــرات ومعــارض دوليــة تحظــى بتغطيــة إعلاميــة واســعة، مثــل القمــة العالميــة للحكومــات التــي تقــام ســنويًا في دبي بحضــور قــادة وخبراء عالمــيين وتولــد محتــوى إعلاميًــا إيجابيًــا عــن الإمــارات كمختــبر لأفضــل الممارســات الحكوميــة. أيضًــا معــرض «جيتكس» الســنوي للتقنيــة في دبي بــات مقصــدًا لشركات التكنولوجيــا والإعلام التقنــي العالمــي، فيتــم إبــراز دبي كمركــز ابتــكار. وكذلــك معــرض دبي للــطيران ومعــرض آيدكــس للدفــاع في أبوظبــي، كلهــا تجــذب آلاف المشــاركين وكبريــات وســائل الإعلام وتنقــل صــورة احترافيــة عــن قــدرة الإمــارات التنظيميــة وريادتهــا القطاعيــة

على منصــات التواصــل الاجتماعــي، يحظــى قــادة الإمــارات بحضــور متميــز: فحســابات الشــيخ محمــد بــن راشــد والشــيخ محمــد بــن زايــد على تــويتر وانســتغرام يتابعهــا ملايين حــول العــالم، ويــنشرون بانتظــام باللغــتين العربيــة والإنجليزيــة رســائل حــول إنجــازات الدولــة ورؤيتهــا وقيمهــا. حتــى أن محمــد بــن راشــد ســبق ونشر قصيــدة شــعرية بالإنجليزيــة موجهــة للعــالم عبر تــويتر. هــذه الطريقــة المبــاشرة في التواصــل مــع الجمهــور الــدولي تعــزز الدبلوماســية الرقميــة للإمــارات. كما أن الحكومــة الإماراتيــة أطلقــت مبــادرات رقميــة مثــل بوابــة "UAE Nation Brand" لتشــجيع الجمهــور العالمــي على التفاعــل مــع قصــة الإمــارات وشــعارها الجديــد. وتســتخدم الإمــارات كذلــك مشــاهير الفــن والرياضــة في الترويــج؛ على ســبيل المثــال، اســتعانت بمشــاهير عالمــيين في حــملات MyDubai الســياحية، واســتقدمت الممثــل الشــهير ويــل ســميث ليقــدم فيــلمًا قــصيرًا عــن تجربــة العيــش في دبي، كما ظهــر ممثلــون بوليوودييــون في أفلام مصــورة في أبوظبــي. كل ذلــك أوصــل رســائل إيجابيــة لجمهورهــم العريــض حــول الإمــارات كوجهــة مفضلــة

ولأن الإمــارات تمتلــك إحــدى أقــوى شركات

الـطيران العالميـة (طيران الإمـارات وطيران الاتحـاد)، فقـد اسـتفادت مـن ذلـك في التسـويق العالمـي: فرعايـة طيران الإمـارات لأنديـة كرويـة كبرى (ريـال مدريـد، آرسـنال، باريـس سـان جيرمـان) وضـع شـعار دبي والإمـارات على صـدور قمصـان تلـك الفـرق وتحـت أنظـار جماهير الرياضـة الدوليـة. وكذلـك رعايـة الاتحـاد للـطيران لفريـق مانشـستر سـيتي سـابقًا وفريـق نيويـورك سـيتي، أسـهمت في رفـع اسـم أبوظبـي عالميًـا (ملعـب مانشـستر سـيتي الرئـيسي يحمـل اسـم «اسـتاد الاتحـاد»). هـذه الدبلوماسـية التجارية/الرياضيـة مكملـة للدبلوماسـية الرسـمية وأسـهمت في بنـاء سـمعة الإمـارات كدولـة ناجحـة في عـالم الأعمال والرياضـة معًـا

انعـكاس كل هـذه الجهـود الإعلاميـة والترويجيـة يظهـر في نتائـج مـؤشرات القـوة الناعمـة: فالإمـارات غالبًـا مـا يتـم إبرازهـا إعلاميًـا كنمـوذج إيجـابي مـن المنطقـة. ووفـق تقريـر مـؤشر القـوة الناعمـة العالمـي (Brand Finance) لعـام 2025، صنفـت الإمارات ضمن أفضـل 10 دول عالميًـا بفضـل عوامـل مثـل التقـدم التكنولوجـي وبيئـة الأعمال والانفتـاح الثقـافي[46][47]. وقـد أشـار التقريـر إلى أن الدبلوماسـية الثقافيـة والمشـاريع الدوليـة كاتفاقيـات إبراهيـم للـسلام واسـتضافة إكسـبو وحضورهـا في مبـادرات المنـاخ، كلهـا عـززت بصمتهـا الثقافيـة عالميـا. كما تمـت الإشـادة بجهودهـا الإعلاميـة؛ إذ حلـت الإمـارات في المركـز 11 عالميًـا مـن حيـث التـأثير الإعلامـي وفـق تصنيـف مؤتمـر القـوة الناعمـة العالمـي 2021[48]، وجـاءت بين الـعشر الأوائـل في التـأثير الشـعبي العالمـي[49]. وبـات ينظـر للإمـارات الآن على أنهـا تمتلـك قـوة ناعمـة تضاهـي قوتهـا الصلبـة، وتسـعى بواسـطتها لترسـيخ مكانتهـا كواحـة للتسـامح والحريـات والتقـدم في المنطقـة[50]

4. المسـاعدات الإنسـانية والتنمويـة كاسـتثمار في السـمعة الدوليـة

على غـرار المملكـة العربيـة السـعودية، جعلـت الإمـارات العمـل الإنسـاني والتنمـوي الـدولي حجـر زاويـة في سياسـتها الخارجيـة، بـل وتفوقـت عالميًـا في بعـض معـاييره. فقـد دأبـت منـذ قيـام الاتحـاد عـام 1971 على تقديـم المسـاعدات للـدول النامية، وتزايـد هـذا الدور بمـرور الزمـن حتـى غـدت الإمـارات واحـدة مـن أكبر المانـحين الدولـيين نسـبة إلى دخلهـا القومـي. ووفـق البيانـات الرسـمية الإماراتيـة، بلـغ إجمالي المسـاعدات الخارجيـة المقدمـة منـذ تأسـيس الدولـة وحتـى منتصـف 2024 حـوالي 360 مليـار درهـم (نحـو 98 مليـار دولار).[51] – وهـو رقـم هائـل إذا مـا قيـس بحجـم الاقتصـاد السـكاني للإمـارات. الأهـم أن الإمـارات حافظـت لسـنوات عـدة على مركـز

(46) /47/ Brand Finance – تقرير مؤشر القوة الناعمة ٢٠٢٥ (٢٠٢٥).

(47)

(48) /49/50/ القـوة الناعمـة لدولـة الإمـارات العربيـة المتحـدة – مجلـة الجنـدي – مجلـة عسـكرية ثقافيـة شـهرية .https://www.aljundi.ae

(49) 51 وكالة وام – إجمالي المساعدات الإماراتية منذ ١٩٧١ (٢٠٢٤).

(50) 52 وزارة الخارجية الإماراتية – حقائق وأرقام المساعدات (٢٠١٨).

(51)

المانح الأكثر سخاءً في العالم نسبة إلى الدخل؛ فمثلًا في عام 2017 قدمت 19.3 مليار درهم كمساعدات تنموية (5.2 مليار دولار) بما يعادل 0.93% من دخلها القومي لتكون الأعلى عالميًا في تلك السنة بحسب منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، وفي كل عام من 2013 إلى 2017 تصدرت الإمارات القائمة العالمية لنسبة المساعدات إلى الدخل([52])، محققة بذلك هدف الأمم المتحدة (0.7% من الدخل) بجدارة. وقد اعتمدت الحكومة الإماراتية سياسة شفافة ومنهجية للمساعدات بإصدار تقرير سنوي مفصل عن المساعدات الخارجية (عبر وزارة التعاون الدولي – التي ترأستها ريم الهاشمي، ثم وزارة الخارجية والتعاون الدولي حاليًا)، تعرض فيه حجم المساعدات ووجهتها وقطاعاتها. وأظهرت التقارير تنوعًا كبيرًا في خارطة المساعدات الإماراتية جغرافيًا: من العالم العربي (مصر، اليمن، الأردن، فلسطين) إلى آسيا (أفغانستان، باكستان، بنغلاديش) إلى أفريقيا (مصر ودول القرن الأفريقي ومؤخرًا دول الساحل)، وحتى مناطق أبعد. وتغطي هذه المساعدات قطاعات متعددة: من بناء بنية تحتية (مدارس، طرق، مستشفيات) إلى دعم إنساني عاجل (غذاء ودواء في أزمات)، وصولًا إلى مساعدات فنية وتقنية

تميز النهج الإماراتي في المساعدات بعدة جوانب زادت من تأثيره الناعم: عدم تسييس المساعدات بشكل فج، حيث تُقدم غالبًا دون اشتراطات سياسية حادة (على الأقل ظاهريًا)، ما أكسبها تقديرًا أمميًا. أيضًا الاستجابة السريعة للأزمات، فالإمارات سباقة في إرسال فرق الإغاثة والطوارئ حال وقوع كوارث طبيعية أو أزمات إنسانية. على سبيل المثال، خلال جائحة كوفيد-19 أرسلت الإمارات مساعدات طبية إلى أكثر من 100 دولة (بما فيها دول كبرى كالمملكة المتحدة والصين وإيطاليا في بدايات الأزمة)، مما عكس روح التضامن وجعل علم الإمارات حاضرًا في عناوين الأخبار كدولة معطاءة. وفي كارثة انفجار مرفأ بيروت 2020 كانت الإمارات من أوائل الدول التي أقامت جسرًا جويًا إغاثيًا إلى لبنان، ووجه رئيسها بإرسال مساعدات عاجلة بقيمة 100 مليون دولار([53]). ومؤخرًا في الأزمة السودانية (2023) أعلنت الإمارات حزمة مساعدات بـ 100 مليون دولار واستقبلت لاجئين للعلاج([54]). هذه المواقف تعزز صورة الإمارات كـ«دولة صديقة عند الشدة». كما عززت الإمارات بنيتها التحتية الإنسانية، فأسست في دبي «المدينة العالمية للخدمات الإنسانية» وهي أكبر مستودع إغاثي لوجستي في العالم تديره الأمم المتحدة وشركاؤها، وتستخدمه منظمات مثل برنامج الأغذية العالمي لتخزين مواد الإغاثة وتوزيعها بسرعة في آسيا وأفريقيا. وهذا جعل دبي مركزًا عالميًا لوجستيًا للرحمة إن جاز التعبير، وارتبط اسمها بالمبادرات الإنسانية

ولم يغب عن الإمارات الجانب التنموي

(52)

(53) UAE foreign aid hit AED 360 billion since 1971 | Emirates News Agency /54/55/ https://www.wam.ae/en/article/b6i89id-uae-foreign-aid-hit-aed-360-billion-since-1971

(54)

المستدام في قوتها الناعمة: فهي تمول مشاريع تنموية طويلة الأجل تترك بصمة مستدامة في الدول المستفيدة، مثل بناء السدود وشبكات الكهرباء (بواسطة صندوق أبوظبي للتنمية)، وتمويل برامج الصحة العالمية (كمبادرة محمد بن زايد لاستئصال شلل الأطفال بالتعاون مع مؤسسة بيل غيتس، حيث قدّم الشيخ محمد مئات الملايين لدعم جهود التطعيم عالميا). وأطلقت الإمارات عام 2024 وكالة الإمارات للإغاثة كهيئة اتحادية لتنظيم المساعدات (كما ورد في أخبار تصريحات ولي عهد أبوظبي)[55]، مما يظهر استمرار التطوير المؤسسي لهذا القطاع

هذه الجهود بمجملها أكسبت الإمارات احترامًا وإشادة في المحافل الدولية. فقد وصفتها منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية بأنها «شريك تنمية رئيسي» خارج أعضاء اللجنة (الإمارات ليست عضوًا في لجنة مساعدات التنمية بالـOECD لكنها تقدم تقارير طوعية لهم). كما كرمت الأمم المتحدة الإمارات مرارًا على مساهماتها، ومنحت منظمة الصحة العالمية عام 2019 محمد بن زايد ميدالية تقدير لدوره في مكافحة الأمراض. ومن زاوية القوة الناعمة، فإن المساعدات الإماراتية أسست لرصيد من الامتنان للدولة لدى شعوب عدة، خاصة في العالم الإسلامي وأفريقيا. فعلى سبيل المثال، ارتبط اسم الإمارات في ذهن الكثير من المصريين بالمشاريع التنموية الضخمة التي موّلتها بعد 2013 (كبناء 100 مدرسة و88 مركزًا صحيًا وغيرها)، وفي باكستان بالمشاريع في مناطق القبائل وبناء الطرق، وفي كوسوفو وألبانيا ببناء المدن السكنية للنازحين وغيرها. هذا الرصيد يتحول عند الحاجة إلى رصيد دبلوماسي يمنح الإمارات ثقلًا ومقبولية عند التوسط أو طرح مبادرات دولية. كما أن سخاء الإمارات نسبيًا لحجمها يولد انطباعًا إيجابيًا عامًا في الإعلام الدولي، ففي كل سنة تقريبًا تتصدر أخبار «الإمارات أكبر مانح نسبة للناتج القومي» عناوين صحف التنمية الدولية، بما يعزز علامتها كدولة معطاءة ومسؤولة. ولعل أفضل تتويج لذلك كان اختيار أبوظبي لاستضافة مؤتمر «المجلس الدولي للسكري» عام 2017 بدعم من الأمم المتحدة للحديث عن الابتكار في التمويل الإنساني – وهو اعتراف دولي بجهود الإمارات في هذا المضمار

(55) في إبراز قصص النجاح الوطني وتعزيز

5. الرياضة والفعاليات الكبرى في خدمة الدبلوماسية الإماراتية

لطالما أدركت دولة الإمارات أهمية الفعاليات الدولية الكبرى – رياضية كانت أو اقتصادية أو ثقافية – كمنصة لتعزيز حضورها العالمي. وقد حصدت أبوظبي ودبي سمعة ممتازة في هذا المجال بفضل استضافتهما الناجحة لسلسلة من الأحداث الضخمة خلال العقدين الماضيين. ولعل الحدث الأبرز كان معرض إكسبو 2020 دبي، الذي تأجل لعام 2021/2022 بسبب الجائحة. سعت الإمارات لاستضافة هذا المعرض منذ فوزها بالتصويت في 2013، إدراكًا منها لأهمية المعارض الدولية (وهي من أضخم الفعاليات العالمية عمرًا وتأثيرًا)

المكانة الدولية[56]. وبالفعل، استثمرت إمكانات هائلة لإنجاح المعرض تحت شعار "تواصل العقول وصنع المستقبل"، ونجحت في تقديم نسخة مبهرة لاقت إعجاب الزوار والمشاركين[57][58]. حضر إكسبو دبي أكثر من 24 مليون زائر من شتى أنحاء العالم خلال ستة أشهر، وشهد مشاركة 192 دولة بجناحات عرضت ثقافاتها وإنجازاتها. وقد أكدت تحليلات المراقبين أن إكسبو 2020 أصبح نموذجًا لقصة نجاح إماراتية توظف الأدوات الثقافية لخدمة قوتها الناعمة[59][60]. فقد أبرز المعرض قدرة الإمارات التنظيمية عالمية المستوى، وعكس تاريخ 50 عامًا من التطور والازدهار بمشاركة العالم الاحتفال بذلك[60]. وأسهم المعرض في تعزيز النفوذ الإماراتي إقليميًا وعالميًا عبر توسيع شبكة العلاقات الشعبية والدبلوماسية[61]، واستقطاب اهتمام اقتصادي وسياحي واستثماري عالمي[61]. وكشفت دراسة أن النجاحات العالمية كإكسبو، إلى جانب اتفاقيات السلام (إبراهيم) واستضافة قمم المناخ، تزامنت مع قفزة ترتيب الإمارات في القوة الناعمة من المركز 18 في 2020 إلى ضمن العشرة الأوائل بحلول 2023[62]. أي أن لهذه الأحداث الضخمة أثرًا ملموسًا في إبراز الصورة الحقيقية للدولة وتعزيز نفوذها[62]

وإلى جانب إكسبو، اعتادت الإمارات استضافة قمم اقتصادية وسياسية رفيعة المستوى: استضافت دبي عام 2003 اجتماعات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي (كأول مدينة عربية)، وتستضيف سنويًا المنتدى الاقتصادي العالمي الإقليمي. كما استضافت أبوظبي قمة الطاقة العالمية والقمة العالمية للصناعة والتصنيع وغيرها. وكل تلك الفعاليات تستقطب صناع القرار والخبراء، مما يتيح عرض النموذج الإماراتي وإنجازاته أمامهم مباشرة وجعلهم سفراء غير رسميين ينقلون انطباعات إيجابية عن الدولة بعد عودتهم[63]

في المجال الرياضي، تمتلك الإمارات باعًا طويلاً في استضافة البطولات الكبرى: تستضيف سباق جائزة الاتحاد للطيران الكبرى للفورمولا 1 في أبوظبي سنويًا منذ 2009، كحدث رياضي وسياحي فائق الأهمية ينقل مشاهد أبوظبي لجمهور عالمي. كما نظمت الإمارات كأس العالم للأندية لكرة القدم عدة مرات (2009، 2010، 2017، 2018) بشهادة نجاح عالية من الفيفا، واستضافت كأس آسيا لكرة القدم 2019. وتستضيف دبي سنويًا بطولة دبي للتنس لفئة المحترفين والمحترفات، وبطولة دبي

(56) Future Center - How Expo 2020 Dubai strengthens the UAE's soft power /57/58/؟
https://futureuae.com/enus/Mainpage/Item/6723/strategic-gains-how-expo-2020-dubai-strengthens-the-uaes-soft-power

(57)

(58)

(59) Future Center - How Expo 2020 Dubai strengthens the UAE's soft power 60/61/؟
https://futureuae.com/enus/Mainpage/Item/6723/strategic-gains-how-expo-2020-dubai-strengthens-the-uaes-soft-power

(60)

(61)

للجولف، كما احتضنت الإمارات بطولة كأس العالم للشباب تحت 20 سنة سابقًا. وعلى صعيد ملكية الأندية، حققت الإمارات واحدة من أبرز قصص نجاح الدبلوماسية الرياضية الاستثمارية باستحواذ مجموعة أبوظبي (الشيخ منصور بن زايد) على نادي مانشستر سيتي الإنجليزي عام 2008، والذي تحول بفضل الاستثمار الإماراتي إلى نادٍ عالمي حقق بطولة الدوري الإنجليزي عدة مرات ودوري أبطال أوروبا. وقد ساهم هذا في رفع اسم أبوظبي (الراعي للملعب النادي وقميصه في سنوات سابقة) في الإعلام الرياضي باستمرار. وبشكل عام، فإن الرياضة الإماراتية حملت شعار الدولة إلى منصات عالمية بطريقة ناعمة، سواء عبر رعاية بطولات (مثل رعاية طيران الإمارات لأكبر سباقات الخيل في العالم – كأس ملبورن وكأس ملبورن) أو عبر استقدام فعاليات مبتكرة (مثل سباق دبي للجري العالمي في منتصف الليل). وميزة الإمارات هنا أنها دخلت مبكرًا هذا المضمار مقارنة بجيرانها، فكوّنت خبرة تراكمية وبنية تحتية راسخة (ملاعب، مرافق) جعلتها خيارًا مفضلًا للاتحادات الدولية لاستضافة البطولات

هذه النجاحات المتتالية في إدارة الفعاليات الكبرى رسّخت الثقة الدولية في قدرات الإمارات. فعندما ضربت جائحة كورونا العالم وأدت لتأجيل إكسبو، أصرّت الدول المشاركة على الاستمرار مع الإمارات وثقتها بأن التأجيل لعام واحد كافٍ. وبالفعل تم تنظيم الحدث بأمان ونجاح باهر. كذلك لما فازت قطر باستضافة مونديال 2022، لجأت للاستفادة من خبرات الإمارات التنظيمية (رغم الخلاف السياسي حينها) في بعض المجالات، كتوظيف شركات إماراتية في تنظيم الجماهير، مما يعكس السمعة المتميزة للإمارات. ومن منظور القوة الناعمة، حققت الإمارات عبر هذه الأحداث جملة من المكاسب: إبراز نفسها كـ«عاصمة إقليمية» لكل ما هو دولي – من أحداث رياضية إلى معارض اقتصادية – مما يرسخ صورتها كمركز عالمي نشط[64]؛ تعزيز الشعور بالفخر الوطني داخليًا والذي يُترجم إلى رواية شعبية إيجابية تروجها الجاليات الإماراتية في الخارج؛ والأهم توسيع شبكة الصداقات والعلاقات غير الرسمية بين شعب الإمارات وشعوب العالم، حيث احتكت كوادر إماراتية شابة بمتطوعين وزوار من كل البلدان خلال إكسبو والبطولات، ما خلق روابط إنسانية طويلة الأمد تخدم البلد مستقبلاً

في المحصلة، نجحت الإمارات إلى حد بعيد في جعل الفعالية الدولية أداة من أدوات قوتها الناعمة، بحيث كل حدث كبير تستضيفه يضيف لبنة إلى «برج سمعتها» العالمي الآخذ في الارتفاع. وقد تجسد ذلك بدخول الإمارات نهائيًا نادي العشر الكبار في القوة الناعمة العالمية وفق مؤشر 2025[49]، محافظةً على ترتيبها العاشر عالميًا الذي نالته منذ 2023)[62]). هذا الموقع المتقدم ما كان ليتحقق لولا حصيلة عقود من الاستثمار الذكي في الثقافة والإعلام

(62) The Rise of Soft Power in the Gulf: A Comparative Analysis of GCC Strategies - ORF Middle East
https://orfme.org/research/the-rise-of-soft-power-in-the-gulf-a-/comparative-analysis-of-gcc-strategies

والإنسانية والرياضة وغيرها، ضمن رؤية استراتيجية تضع سمعة الدولة ومكانتها في مصاف الأولويات الوطنية

المبحث الثالث: المقارنة بين التجربتين السعودية والإماراتية

بعد استعراض مفصل لكل من التجربتين السعودية والإماراتية في بناء القوة الناعمة، ننتقل الآن إلى مقارنة مباشرة تبرز أوجه التشابه والاختلاف في المقاربات والأدوات والنتائج بين البلدين. يتضح من العرض السابق أن كلا الدولتين أدركتا أهمية القوة الناعمة في تعزيز نفوذهما الخارجي وتحقيق أهداف سياستهما الدولية، إلا أن النهج الاستراتيجي ودرجة التكامل المؤسسي وسرعة الإنجاز والتأثير اختلفت بينهما. أدناه نناقش أبرز محاور المقارنة

1. الرؤية الإستراتيجية والتخطيط المؤسسي

الإمارات تبنّت نهجًا أكثر استباقية وتنظيمًا مؤسسيًا لبناء قوتها الناعمة. فقد وضعت إطارًا إستراتيجيًا واضحًا مبكرًا متمثلًا في استراتيجية القوة الناعمة 2017 التي حظيت بدعم أعلى المستويات الحكومية[8]، وتأسس مجلس تنسيقي يشارك فيه كبار الوزراء والمسؤولين[27] لتوحيد الجهود الوطنية في هذا المجال. هذا يعني أن الإمارات صاغت سياسة شاملة ومتكاملة تضم مختلف القطاعات (الثقافة، الاقتصاد، الدبلوماسية الشعبية، الإعلام، المساعدات) تحت مظلة واحدة بهدف تحسين السمعة وترسيخ مكانتها العالمية[8]. كما عززت منظومتها المؤسسية عبر وزارات جديدة للقيم المجتمعية (التسامح والسعادة والشباب)، وأنشأت مكتبًا للدبلوماسية العامة، ونفّذت حملات هوية إعلامية موحدة. كل ذلك يدل على درجة عالية من التنظيم المؤسسي والاعتراف الرسمي بأهمية القوة الناعمة

أما السعودية، فعلى الرغم من تبنيها عناصر القوة الناعمة ضمن رؤية 2030، إلا أنها لم تنشئ (حتى 2025) مجلسًا وطنيًا موحدًا أو استراتيجية معلنة مخصوصة للقوة الناعمة كما فعلت الإمارات. بدلاً من ذلك، توزعت جهود القوة الناعمة السعودية بين برامج رؤية 2030 المختلفة (مثل برنامج جودة الحياة الذي يغطي الترفيه والثقافة، وبرنامج تطوير الصناعة الوطنية الذي يشمل السياحة، وغيرها) وبين الوزارات والمؤسسات المعنية كلٌ في نطاقه. فوزارة الخارجية أسست إدارة للدبلوماسية العامة وشجعت مبادرات الحوار الثقافي، ووزارة الإعلام أطلقت خططًا لتحسين الصورة الخارجية، ووزارة الثقافة وضعت استراتيجية ثقافية تهدف لجعل المملكة وجهة ثقافية عالمية بحلول 2030[65]، وهيئة الترفيه لديها أجندة فعاليات دولية، ووزارة السياحة تعمل على ترويج المملكة عالميًا وهكذا. أي أن المكونات موجودة لكن التنسيق المركزي أقل وضوحًا مقارنة بالإمارات. كما أنه لا يوجد خطاب رسمي متكرر يتبنى مصطلح «القوة الناعمة» بحد ذاته في السعودية (رغم استخدام المفهوم ضمنيًا)، في حين نجد المسؤولين الإماراتيين – من أعلى المستويات – يتحدثون صراحة عن بناء قوة ناعمة إماراتية كهدف وطني[34][41]. وربما

يرجع ذلك إلى أن السعودية ركزت في البداية على التغيير الداخلي، على اعتبار أن تحقيق إنجازات إصلاحية بالداخل سينعكس تلقائيًا على السمعة الخارجية. لكن مع انطلاق الرؤية بدأت الحاجة تبرز لجهود خارجية منظمة لتسويق هذا التحول، ومن هنا صدرت توجيهات لتعزيز العمل الإعلامي الخارجي وإنشاء مراكز تواصل دولية تحت إشراف الديوان الملكي ووزارة الإعلام. ومع نهاية العقد الحالي، يُتوقع أن تتجه المملكة نحو مأسسة أكبر لقوة ناعمة متكاملة، وربما إنشاء مجلس أو هيئة عليا تعنى بذلك (أسوة بتجربة الإمارات). يمكن القول إن الإمارات تفوّقت في هذا الجانب بحكم الأسبقية الزمنية والتجربة، بينما السعودية تلحق بالركب وتسعى للاستفادة من النموذج المؤسسي الإماراتي

2. أدوات القوة الناعمة الرئيسية: توازن التشابه والاختلاف

في الجدول التالي نستعرض مقارنة مباشرة بين أدوات ومجالات القوة الناعمة التي يوظفها البلدان، لبيان نقاط التركيز لكل منهما:

تركيز وأمثلة (الامارات)	تركيز وأمثلة (السعودية)	المجال/ الاداة
إستراتيجية وطنية معلنة للقوة الناعمة منذ ٢٠١٧ بدعم حكومي مجلس القوة الناعمة أعلى[٨] لتنسيق كافة الجهود (حكومية وخاصة وأهلية) لرسم صورة موحدة ورؤية موحدة للدولة[29].- رؤية واضحة لتعزيز الهوية الوطنية عالميًا كدولة حديثة ومنفتحة ومتسامحة[8].	– تضمين أهداف القوة الناعمة ضمن رؤية ٢٠٣٠ (تحسين الصورة، الانفتاح الثقافي، جذب السياح والاستثمارات). إستراتيجية مستقلة معلنة للقوة الناعمة حتى ٢٠٢٥، بل جهود موزعة عبر برامج الرؤية والوزارات المختلفة. -الاعتماد على مكانة المملكة الدينية ومحوريتها الإقليمية كأساس تنطلق منه المبادرات الناعمة.	الاستراتيجية الوطنية

– بني تحتية ثقافية عالمية: متحف اللوفر أبوظبي[36]، متاحف حديثة (قيد الإنشاء كجوجنهايم) تؤكد حضورًا ثقافيًا دوليًا.– فعاليات راسخة: آرت دبي، معرض الشارقة للكتاب، مهرجان أبوظبي للفنون – باتت وجهات دولية ثابتة.– الثقافة المحلية جزء من الهوية المصدرة: فنون الأداء التراثية في إكسبو وغيره، تضمين الضيافة الإماراتية في الفعاليات. – تعتبر الإمارات نفسها مركزًا ثقافيًا إقليميًا وتسعى لريادة الإبداع الفني في العالم العربي.	– نهضة حديثة في القطاع الثقافي بعد افتتاح دور السينما، إنشاء وزارة الثقافة (2016-2018) وهيئات فنون وأفلام. مهرجانات ناشئة: موسم الرياض، مهرجان البحر الأحمر السينمائي، بينالي الفنون.– إبراز التراث: مشاريع العلا والدرعية الإسلامية ، تسجيل مواقع تراثية في اليونسكو، إحياء الحِرف التقليدية.– التركيز لا يزال محليًا/إقليميًا بشكل أكبر وإن كانت الطموحات عالمية (مثل إرسال معارض متنقلة للخط العربي للخارج).	الثقافة والفنون
– التسامح والتعايش: قيمة محورية تروجها رسميًا (وزارة للتسامح، عام للتسامح 2019)[32]، مع مبادرات كبناء دور عبادة لمختلف الأديان، ووثيقة الأخوة الإنسانية[39].– السعادة وجودة الحياة: إبراز الإمارات كدولة تهتم برفاه الإنسان (وزارة السعادة، مراكز خدمة نموذجية).– الحداثة والانفتاح: خطاب الإمارات يركز على أنها مجتمع منفتح يحترم الحريات (تعديل قوانين لتحسين بيئة المعيشة للأجانب، حرية الملبس نسبيًا، الخ).	– الدين المعتدل: تروج المملكة لنفسها كقبلة الإسلام المعتدل ومسؤولة عن رعاية الحرمين[66]، مع جهود لمحاربة التطرف (مركز اعتدال، رابطة العالم الإسلامي في الحوار).– إصلاحات اجتماعية: إبراز تمكين المرأة (قيادة السيارة، مناصب عليا) لتحسين الصورة الحقوقية. - تؤكد المملكة على قيم مثل الاستقرار والتضامن العربي والإسلامي في خطابها الدولي.	القيم والمبادئ (الدبلوماسية القيمية)

– منظومة إعلام دولية متنوعة: سكاي نيوز عربية (موجهة إقليميًا)، صحيفة ذا ناشيونال (جمهور غربي)، شبكة أبوظبي للإعلام لها ذراع عالمي، وكالة وام تبث بلغات عدة.– توظيف ذكي للإعلام في المناسبات: حملات عالمية خلال إكسبو 2020، إنتاج أفلام وثائقية عن الإمارات على قنوات عالمية.– سمعة إعلامية إيجابية: أقل قيودًا على الإعلام الدولي العامل بالإمارات مقارنة بالسعودية، مما جعلها مركزًا للمراسلين في المنطقة.– قادة الإمارات نشطون على شبكات التواصل ويلقون تفاعلًا كبيرًا، مما يضفي طابعًا ودودًا وشعبيًا على صورتهم.	– أدوات إعلامية تقليدية قوية إقليميًا: مجموعة MBC (ترفيه) ذات انتشار واسع، قناة العربية (أخبار) المؤثرة عربيًا، وصحف كـ الشرق الأوسط والرياض (موجهة للعرب).– منصات بالإنجليزية: عرب نيوز، سعودي جازيت – نطاقها محدود مقارنة بنظيراتها الإماراتية.– حملات العلاقات العامة: نشاط عالي بعد 2018 لتحسين الصورة في الغرب، لكن ما زالت تتعامل برد الفعل أحيانًا أكثر من المبادر. – الحضور الرقمي: تنامٍ في تواجد المسؤولين على تويتر، واطلاق مركز التواصل الدولي لنشر محتوى رسمي بعدة لغات.	الإعلام والتواصل
– لا تمتلك ثقلًا دينيًا إسلاميًا مماثل، لكنها تبنت دبلوماسية حوار الأديان: استضافت البابا وشيخ الأزهر[39]، تبني خطاب التسامح الديني وتعيين وزير للتسامح.[32]**– مجلس حكماء المسلمين مقره أبوظبي يعمل على تقريب المذاهب وإبراز الإمارات كحاضنة للإسلام المعتدل (برئاسة شيخ الأزهر سابقًا).– تسوّق الإمارات نفسها كعاصمة للتعددية الدينية في الشرق الأوسط (وجود الكنائس والمعابد في أبوظبي ودبي دون حساسيات).**	– تستفيد بقوة من موقعها كقلب العالم الإسلامي: مواسم الحج والعمرة (تستقطب ~8 مليون معتمر سنويًا قبل كورونا) منصة لتعزيز الروابط[67].– منظمة التعاون الإسلامي رابطة العالم الإسلامي تحت نفوذها، تستغلها لتوحيد الموقف الإسلامي أحيانًا (مثل قمم مكة الطارئة).– مؤخراً: انفتاح على حوار الأديان عبر الرابطة وزيارات العيسى لأوروبا وأمريكا لتصحيح الصورة.	الدبلوماسية الدينية

المساعدات الخارجية	– إجمالي تاريخي ضخم ~140$ مليار[20] (الأعلى عربيًا)، تركّز تاريخيًا على العالمين العربي والإسلامي (مصر، فلسطين، اليمن، باكستان...).– قفزة في التنسيق: إنشاء مركز الملك سلمان للإغاثة (٢٠١٥) ومنصة المساعدات السعودية (٢٠١٨)[٢٤] لتحسين توثيق وتنسيق المساعدات. – غالبية المساعدات كانت ثنائية (من دولة لدولة) وتستخدم أيضًا لدعم حلفاء سياسيين (مثال: دعم مصر بعد ٢٠١٣، السودان، البحرين...).– حضور أقل في أفريقيا جنوب الصحراء مقارنة بالإمارات، وأقل انخراطًا في قضايا التنمية العالمية العامة (باستثناء مساهمات متفرقة كدعمGlobal Fund).	– إجمالي ~98$ مليار منذ 1971[51] (ثاني أكبر خليجي بعد السعودية)، لكن الإمارات تفوق الجميع كنسبة من الدخل سنويًا[52].– مساعدات متنوعة جغرافيًا: حضور قوي في أفريقيا وآسيا إلى جانب المنطقة العربية. مشاريع كبرى في مصر والأردن، وكذلك باكستان وأفغانستان، ودعم مستمر للدول الأقل نموًا (جزر المحيط الهادئ، دول أفريقيا الفقيرة...).– اعتمادية عالية: تأسيس وزارة التعاون الدولي لتنسيق المساعدات وتقديم التقارير السنوية بشفافية، تحرص الإمارات أن تظهر كمساهم دولي مسؤول (شراكات مع الأمم المتحدة، استضافة مقرات وكالات إغاثة).– توجه للمبادرات متعددة الأطراف: تمويل مبادرات أممية وصناديق تنموية مشتركة (صندوق حياة & سبل المعيشة مع البنك الإسلامي للتنمية مثلًا[68]).

– فعاليات رياضية: سبّاقة في المنطقة – الفورمولا1 منذ 2009 بأبوظبي، بطولات تنس وجولف سنوية، كأس العالم للأندية عدة مرات، آسيا ٢٠١٩... كما أن أبوظبي تملك نادي مانشستر سيتي (عبر شركة سيتي لكرة القدم) الذي يعد دعاية عالمية غير مباشرة للإمارات.– معارض ومؤتمرات: تنظيم معرض إكسبو ٢٠٢٠ بنجاح مبهر[٥٩][٦١]؛ منتدى دبي الاقتصادي العالمي؛ القمة العالمية للحكومات (حدث سنوي دولي)؛ معرض دبي للطيران (من الأكبر عالميًا)؛ آيدكس للدفاع... باتت الإمارات مركزًا ثابتًا لهذه الملتقيات.– معارض تجارية وسياحية: سوق السفر العربي بدبي، معرض ومؤتمر البترول العالمي بأبوظبي 2019، إلخ – حضور دائم. النجاح الإماراتي هنا جعلها الوجهة الأولى إقليميًا لأغلب الفعاليات الكبرى، قبل السعودية.	– فعاليات رياضية: تسارع حديث في 5 سنوات الأخيرة – فورمولا إي، ملاكمة عالمية، سباقات رالي، بطولات كرة قدم (استضافة سوبر إيطالي وإسباني)، وعروض المصارعة الترفيهية (WWE في نجاحات culminating...) مثل الفوز باستضافة آسيا ٢٠٢٧ وإكسبو ٢٠٣٠ والبطولة الآسيوية الشتوية ٢٠٢٩.– مؤتمرات: استضافت قمة G20 (افتراضية ٢٠٢٠)؛ تخطط لاستضافة مناسبات دولية مثل قمة الشرق الأوسط الأخضر، والقمة العالمية للذكاء الاصطناعي – لكن لم تصل بعد لمستوى الإمارات في كثافة المؤتمرات الدورية العالمية.– الحضور السياحي في المعارض: جناح السعودية في إكسبو 2020 كان ثاني أكبر جناح وحاز جوائز، مما أظهر اهتمام المملكة بتحقيق بصمة في تلك الفعاليات.	الفعاليات الدولية والرياضة

– صورة إيجابية راسخة: تُعرف الإمارات عالميًا بأنها بلد حديث، مزدهر، منفتح للسياحة والأعمال. مدن كدبي وأبوظبي ارتبطت في الذهن العالمي بالرفاهية والأمان والفرص (وجهة سياحية وتسوق وترفيه). – القوة الناعمة المكتسبة: نجاحات دبلوماسية (اتفاق إبراهيم للسلام مع إسرائيل 2020، دور وساطة نسبي في أفغانستان والسودان) عززت صورة الإمارات كشريك سلام وانفتاح[40]. عدم وجود نزاعات سياسية حادة مع الدول الكبرى جعل سمعتها أقل جدلية مقارنة بالسعودية. – انتقادات محدودة: تُنتقد الإمارات أحيانًا في قضايا مثل حقوق العمال الوافدين أو دورها باليمن (2015-2019)، لكن تمكنت عبر التواصل الفعال ومبادرات التحسين من منع تلك الملفات من التأثير البالغ على سمعتها العامة. كما أن عدم وجود تركيز إعلامي غربي سلبي كثيف عليها كما حصل مع السعودية في بعض القضايا أعطاها مجال مناورة أفضل.– المؤشرات: ثبات الإمارات بين الكبار – ١٠ عالميًا منذ ٢٠٢٣[٦٢]، والأولى إقليميًا باستمرار[٩]. في مؤشر ٢٠٢٥ حلت بالمرتبة ١٠ (بينما السعودية 20)[17][18]، مما يعكس فجوة لصالح الإمارات في إدراك الجمهور العالمي.	– تحولات إيجابية: بدأت الصورة التقليدية للمملكة المحافظة تنكسر لتظهر ملامح جديدة – بلد سياحي ناشئ، مجتمع يتغير (مشاهد حفلات موسيقية وفعاليات ترفيه غير مألوفة سابقًا). العالم بدأ يلحظ تلك التغييرات ويناقشها إيجابًا.– تحديات: الماضي القريب يلقي بظلاله؛ أحداث مثل قضية خاشقجي 2018 أو حرب اليمن استُغلت إعلاميًا ضد المملكة وشوّهت صورتها[66]، تحتاج المملكة لوقت وجهد لتجاوز أثرها. سجلّ حقوق الإنسان لا يزال محط انتقاد لدى بعض الدوائر مما يحدّ من قوة سردية الانفتاح.– مكانة دينية قوية: لدى الشعوب الإسلامية، سمعة السعودية كأرض الحرمين ثابتة وإيجابية عمومًا، وتساعدها في تبوء موقع قيادي رغم ما قد يُؤخذ عليها سياسيًا.– المؤشرات: تحسن ترتيب السعودية في مؤشر Brand Finance للقوة الناعمة من ٢٦ (٢٠٢٠) إلى ١٨ (٢٠٢٤)[١٧][١٨] ثم ٢٠ (٢٠٢٥)[١٧][١٨] مما يظهر تصاعدًا لكن لا يزال خلف الإمارات.	الصورة الذهنية والسمعة الدولية

قـراءة في المقارنـة: نـرى أن كلا البلديـن يسـتخدم تشـكيلة أدوات متشـابهة (ثقافـة، إعلام، مسـاعدات، سـياحة، فعاليـات...) لكـن كيفيـة التفعيـل ومسـتوى التركيـز يختلـف. الإمـارات ركـزت بقـوة على قيـم التسـامح والتنـوع كعلامـة وطنيـة، بيـنما السـعودية ترتكـز على قيمتهـا الدينيـة وتراثهـا الإسلامـي الأساسـية مـع محاولـة إبـراز اعتدالهـا الجديـد. ثقافيًـا، الإمـارات لديهـا بنيـة تحتيـة واسـتثمار أقـدم جعلهـا مركـزًا ثقافيًـا قبـل أن تبـدأ السـعودية رحلـة مشـابهة متأخـرة. في الإعلام الـدولي، للإمـارات سـبق واضـح عبر قنـوات وصحـف عالميـة، بيـنما السـعودية تدعـم الآن وسـائل موجهـة للغـرب ولكنهـا لا تـزال تبنـي جمهورهـا. في المسـاعدات، كلاهما سـخيّان، مـع تفـوق سـعودي بالكـم المطلـق[20] وتفـوق إمـاراتي بالنسـبة والتنـوع[52] – حتـى إن مـؤشر القـوة الناعمـة العالمـي رصـد أن "مسـاعدة الـدول المحتاجـة" إحـدى النقـاط التـي تتلقـى فيهـا الإمـارات تقييمًـا عاليًـا[69]. أمـا في الرياضـة والفعاليـات، فالإمـارات صاحبة خبرة طويلـة جعلـت اسـمها مرتبطًـا بأحـداث ناجحـة (فورمـولا1، المؤتمـرات السـنوية)، والسـعودية دخلـت بقـوة مؤخـراً وتحقـق مكاسـب سريعـة (اسـتقطاب نجـوم الرياضـة، تنظيـم أحـداث كبرى مسـتقبلية) وقـد تلحـق بالإمـارات في هـذا المـضمار قريبًـا

3. التـأثير الـدولي والصـورة الذهنيـة: تفـوّق التجربـة الإماراتيـة

عنـد تقييـم الأثـر الـدولي التراكمـي لـكل مـن التجربـتين، تميـل الكفـة حاليًـا لصالـح الإمـارات مـن حيـث النجـاح في بنـاء صـورة ذهنيـة إيجابيـة وشـاملة على المسـتوى العالمـي. فالإمـارات تمكنـت عبر عقديـن مـن الاستراتيجيـات المتواصلـة أن تثبـت في الأذهـان صورتهـا كدولـة معتدلـة ومزدهـرة ومنفتحـة، بـل وأصبحـت تُقـارن بـنماذج عالميـة ناجحـة رغـم حداثـة عمرهـا. مـثلاً، أصبـح شـائعًا في الإعلام الـدولي تشـبيه دبي بمـدن عالميـة رائـدة مثـل سـنغافورة أو هونـغ كونـغ في جـذب الأعمال والسـياح. وأيضًـا ينظـر للإمـارات كصـوت إيجابي في القضايـا الدوليـة مثـل التغير المناخـي (اسـتضافة وإطلاق مبـادرات خضراء)، ومكافحـة التطـرف (مركـز هدايـة بأبوظبـي، دعـم تحالفـات مكافحـة الإرهـاب فكريًـا). هـذا الحضـور المتـوازن جعـل الإمـارات تلقـى احترامًـا دوليًـا يفـوق حجمهـا الجغـرافي أو السـكاني. حتـى في الأزمـات السياسـية المعقـدة (كحـرب اليمـن أو المقاطعـة مـع قطـر)، نجحـت الإمـارات في الحفـاظ على نهـج هـادئ أقـل ضررًا بسـمعتها مقارنـة بالسـعودية التـي وُضعـت أكثر تحـت المجهـر. أضـف إلى ذلـك أن الإمـارات بحكـم كونهـا مجتمعًـا شـديد التنـوع وبلا أغلبيـة سـكانية محليـة كـبيرة، قـلّ فيهـا الاحتـكاك الثقـافي مـع الوافديـن وتحولـت لما يشـبه "أرض الفـرص لـكل الجنسـيات"، فانعكـس ذلـك بسـمعة تسـامح وتعدديـة يسـتحيل أن تنالهـا دولـة أحاديـة الثقافـة. وبالفعـل صنّـف مـؤشر القـوة الناعمـة 2023 الإمـارات ضمـن الـعشرة الكبـار عالميًـا مـن حيـث سـهولة التعامـل وودّ الشـعب[9]. ولا شـك أن الاسـتقرار السـياسي الـداخلي للإمـارات (غيـاب أيـة اضطرابـات أو تهديـدات أمنيـة كـبيرة طيلـة تاريخهـا الحديـث) عـزز الثقـة

الدولية بها، مقارنة بالسعودية التي عانت من هجمات إرهابية في العقد الأول من الألفية واضطرابات أمنية محدودة، مما كان يؤثر سابقًا على سمعتها كبلد آمن – قبل أن تنجح خلال السنوات الأخيرة في ضبط ذلك واستعادة الاستقرار الكامل

على الجانب الآخر، السعودية تمر حاليًا بمرحلة إعادة تشكيل صورتها أكثر من ترسيخ صورة ثابتة. فصورتها التقليدية لدى شريحة واسعة حول العالم (خاصة في الغرب) كانت سلبية إلى حد ما بفعل عوامل معروفة: التشدد الديني، قيود المرأة، قضايا حقوق الإنسان، تصدير الفكر المحافظ... إلخ. الآن تبذل القيادة الجديدة جهودًا جبارة لمحو تلك الصورة عبر حزمة إصلاحات اجتماعية وقانونية وإعلامية، ويُمكن تلمّس بوادر نجاح. فقد بدأت الميديا الغربية تتناول "السعودية الجديدة" بإيجابية واهتمام، وارتفعت شعبية ولي العهد محمد بن سلمان لدى قطاعات من الشباب العربي (وفق استطلاعات عربية سنوية مثل "أصداء بي سي دبليو" للشباب العربي التي أظهرت السعودية والإمارات كأكثر بلدين يفضّل الشباب العربي العيش والعمل فيهما في 2022 و2023). كما أن الانفتاح السياحي كشف كثيرين على جمال الطبيعة السعودية وغنى تراثها، ما أوجد قصصًا وتجارب جديدة تروى عنها. ومع ذلك، لا تزال بعض الملفات تؤثر سلبًا على القوة الناعمة السعودية: أبرزها ملف حقوق الإنسان والحريات السياسية، إذ تتعرض الرياض لانتقادات مستمرة من منظمات دولية بشأن معتقلي الرأي أو حرب اليمن أو غيرها. وهذه الانتقادات – وإن رفضتها السعودية معتبرة إياها تدخلًا – إلا أنها تحد من اندفاع سردية القوة الناعمة، لأن القوة الناعمة مبنية في جزء منها على "القيم السياسية الجاذبة" كما ذكرنا[5]، وفي هذا البُعد تحتاج السعودية إلى خطوات إضافية لإقناع الجمهور العالمي بتحسن سجلها. أضف لذلك أن بعض سياسات السعودية الإقليمية الصارمة (مثل مواجهة خصومها الإقليميين) قد تبدو ضرورية أمنيًا لكنها تؤثر على صورتها لو قورنت بالإمارات التي تنهج دبلوماسية أكثر هدوءًا. على سبيل المثال، وُصفت الإمارات بأنها "لا عدوّ لها" نتيجة حفاظها على خيوط تواصل مع الجميع (باستثناء خلافها القصير مع إيران عام 2016 وإدارة Obama)، بينما السعودية دخلت في خصومات علنية مع إيران وقطر وكندا وغيرها أثّرت على صورتها في تلك الدوائر

مع ذلك، تجدر الإشارة إلى أن الفجوة بين البلدين بدأت تضيق مؤخراً مع تسارع الإنجازات السعودية. إقليمياً مثلاً، في مؤشر القوة الناعمة العربية أو صورة الدول العربية لدى الشعوب العربية، غالبًا ما تتبادل السعودية والإمارات موقع الصدارة. فالشعب العربي عمومًا ينظر بإعجاب لكلا التجربتين وإن كان يقدّم الإمارات بوصفها "نموذج النجاح الحضاري" الأبرز ويعتبر السعودية "القوة التقليدية الصاعدة".

وربما يمكن القول إن الإمارات تفوقت عالميًا، بينما السعودية حافظت على ثقلها الإقليمي والديني مع سعيها للتوسع عالميًا. وقد أظهر مؤشر Brand Finance 2024 أن الدول التي شهدت أكبر تحسن منذ 2020 في المؤشر كانت الإمارات والسعودية وقطر على التوالي[70]، مما يدل على صعود عام للقوة الناعمة الخليجية وإن كانت الإمارات تقود هذا الصعود تليها السعودية[17] [18]. وقد حللت دراسة لمؤسسة ORF عام 2025 هذا التباين، مشيرةً إلى أن الإمارات حققت قفزة مبكرة بفضل سلسة جهود عالمية مرئية (إكسبو، اتفاقيات إبراهيم، استضافة COP28) بينما السعودية برغم صعودها تراجعت طفيفًا في 2025 ربما لانشغالها داخليًا في بناء مشاريع ضخمة قللت تركيزها الخارجي لذلك العام[17] [18]. ومعنى ذلك أن الاستمرار في بذل الجهود واتساقها مهم للحفاظ على النتائج؛ والإمارات في هذا مضت بخطى ثابتة فيما السعودية ما زالت في مرحلة تتعلم فيها وتسابق الزمن لتعويض العقود الماضية

4. تفوّق التجربة الإماراتية: الأسباب والملامح

بناءً على ما سبق، يتأكد أن التجربة الإماراتية في القوة الناعمة متفوقة إجمالًا على نظيرتها السعودية في الوقت الراهن. ويمكن إجمال أبرز ملامح هذا التفوق وأسبابه فيما يلي

• **البداية المبكرة والتراكم:** استفادت الإمارات من انطلاقة مبكرة في تسعينيات القرن الماضي لبناء سمعتها كواحة ازدهار وحداثة (عبر نهضة دبي مثلاً)، ثم أتبعتها بخطط ممنهجة في 2010s، ما أعطاها أفضلية زمنية لتترسخ صورتها عالميًا. بينما بدأت السعودية فعليًا هذا المسار بقوة فقط بعد 2016 مع رؤية 2030، أي بفارق زمني كبير

• **التكامل والشمول:** التجربة الإماراتية شاملة لجميع عناصر القوة الناعمة (ثقافة، تعليم، قيم، اقتصاد، سياسة خارجية) ضمن رؤية موحدة، في حين أن التجربة السعودية حتى الآن برزت بقوة في بعض العناصر (الدين، المساعدات، الترفيه مؤخرًا) لكنها أقل تكاملًا واتساقًا تحت استراتيجية واحدة. الهيكل المؤسسي الإماراتي لعب دورًا كبيرًا في ضمان هذا التكامل[8][29]

•**القيم الإيجابية العالمية:** ركزت الإمارات على قيم ذات جاذبية كونية مثل التسامح والتعايش والسعادة، وهي قيم تلقى صدى إيجابيًا فوريًا لدى أغلب الشعوب[32][33]. بينما السعودية – برغم أنها تتبنى الاعتدال – ارتكزت تقليديًا على قيمة دينية قد لا تهم غير المسلمين، واضطرت الآن لتبني قيم عالمية (تمكين المرأة، محاربة الفساد، حق الحياة الكريمة) لكن صورتها القديمة تجعل البعض يشكك إلى أن يثبت استمرار هذه القيم

•**الانفتاح الاجتماعي:** الإمارات مجتمع منفتح منذ زمن، مما جعل الترويج له أسهل، بينما السعودية تمر بتحولات اجتماعية داخلية كبيرة؛ نجاح القوة

الناعمة السعودية مرتبط بشرط ترسيخ هذه الانفتاح داخليًا واستدامته حتى ينعكس تمامًا في الخارج. الإمارات لا تواجه معارضة داخلية تذكر حول سياساتها المنفتحة، على عكس السعودية التي تواجه تيارًا محافظًا (وإن تراجع) قد يعرقل أو ينتقد بعض مظاهر الانفتاح، وهذا يفرض على الرياض توازناً أحيانًا بين الداخل والخارج

• **الحياد والتوازن السياسي:** حافظت الإمارات على شبكة علاقات دولية متوازنة بلا عداء مع القوى الكبرى أو الإقليمية (استثناء خلاف قطر كان حالة خاصة وتم تجاوزه). لم تتبنَّ مواقف حادة تثير استعداء طرف دولي قوي. بينما السعودية بحكم ثقلها السياسي خاضت مواجهات سياسية (مع إيران، قطر سابقًا، كندا 2018) عرضتها لهجوم إعلامي مضاد. وبالتالي الإمارات أقل عرضة لحملات مضادة تشوه سمعتها، ما يجعل بناء القوة الناعمة يجري في بيئة أكثر صفاءً

• **النتائج الملموسة:** يمكن رصد نتائج نجاح الإمارات بوضوح: أعلى جواز سفر عالمي (لفترة كانت الأولى عالميًا في مؤشر باسبورت إندكس)[71][72]، استضافة فعاليات عالمية بدون اعتراضات، دخولها قوائم الـTop10 في عدة مؤشرات (القوة الناعمة، الثقة الدولية...)، بينما السعودية رغم تقدمها إلا أنها لم تحقق بعد إنجازات مماثلة على صعيد المكانة الدولية (مثلاً جوازها في الخمسينيات رتبةً، مؤشر السمعة أقل). هذه النتائج تغذي بدورها حلقة مفرغة إيجابية لصالح الإمارات؛ فالنجاح يجلب نجاحًا أكبر

• **القيادة والرسائل:** القيادة الإماراتية، خاصة الشيخ محمد بن راشد والشيخ محمد بن زايد، تتمتع بكاريزما تواصلية عالية مع الداخل والخارج، ويحرصون على مخاطبة العالم بلغة إنجليزية جيدة ورسائل واضحة. القيادة السعودية الشابة (محمد بن سلمان) رغم شعبيتها محليًا وإقليميًا، إلا أنها ما زالت تعمل على ترسيخ صورتها دوليًا، وتتجنب الإعلام الغربي نسبيًا (قلة مقابلات دولية)، مما يقلل فرص التواصل المباشر مع الجمهور العالمي

• **الاستدامة والاستمرارية:** الإمارات جعلت القوة الناعمة جزءًا من رؤية مئوية 2071 لديها، أي أنها مشروع مستدام طويل الأجل. السعودية رؤيتها الحالية حتى 2030 ولم تتضح بعد ملامح ما بعدها في هذا السياق. لكن المتوقع بالطبع أن تستمر وتُحدّث، بيد أن الإمارات تقدم صورة أوضح عن تخطيط مستدام

مع الإقرار بهذا التفوق الإماراتي، من المهم القول إن الفجوة ليست مطلقة أو عصية على التجسير. فالسعودية تمتلك إمكانات ضخمة ونقاط قوة فريدة (خصوصًا في التأثير الديني والثقل السياسي والاقتصادي والحضاري) تمكنها – إن أحسنت استغلالها ضمن إطار مؤسسي واستراتيجية مدروسة – من تحقيق قفزة نوعية في قوتها الناعمة وربما التفوق في مجالات معينة. ولعل رؤية 2030 بطموحها الكبير ستفضي إلى

ترسيخ صورة جديدة للمملكة أكثر إشراقًا، كما بدأت مؤشراتها تظهر. عندئذ سنشهد مشهدًا غير مسبوق: قطبان خليجيان لديهما قوة ناعمة كبرى متكاملة مع قوتهما الصلبة، بما يزيد تأثير الخليج عمومًا في مسرح العلاقات الدولية

النتائج والتوصيات

النتائج

تناولت هذه الدراسة بالتحليل المقارن تجربتي المملكة العربية السعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة في توظيف القوة الناعمة ضمن سياستهما الخارجية. ومن خلال الاستقصاء النظري والتطبيقي، يمكن تلخيص أهم النتائج فيما يلي

• تأكيد أهمية القوة الناعمة خليجيًا

أظهرت التجربتان أن دول الخليج لم تعد ترتكز فقط على أدوات القوة الصلبة (كالقوة الاقتصادية أو التحالفات الأمنية)، بل بات الاستثمار في السمعة والصورة الإيجابية جزءًا أصيلًا من استراتيجياتها. وقد قطعت السعودية والإمارات أشواطًا معتبرة في هذا المجال، مما انعكس في صعود ترتيبهما في المؤشرات العالمية المعنية بالقوة الناعمة خلال السنوات الأخيرة[9]. هذا التطور يمثل تحولًا في الفكر الدبلوماسي الخليجي نحو مزيد من الشمولية والتوازن بين عناصر القوة

• تفوق نسبي للتجربة الإماراتية حاليًا

بالمقارنة التفصيلية، برزت الإمارات كنموذج أكثر نضجًا وهيكلية في بناء القوة الناعمة، حيث تبنت مبكرًا إستراتيجية واضحة مدعومة على أعلى المستويات[8]، ونجحت في ترسيخ عدة علامات دولية فارقة (التسامح، مركز الثقافة والفن، المانح السخي، الوجهة السياحية الآمنة). ونتيجة لذلك حافظت الإمارات على موقعها ضمن أقوى 10 دول في القوة الناعمة عالميًا 2025-2023[62][49]، وتصدرت عربيًا. في المقابل، السعودية – رغم امتلاكها مقومات فريدة تاريخيًا – ما زالت في مرحلة الصعود والتحول. لقد حققت قفزات سريعة بفضل رؤية 2030، وتحسن ترتيبها العالمي إلى المركز 18 في 2024[19]، لكنها لم تبلغ بعد مستوى التأثير والسمعة الذي حققته الإمارات. ويمكن إرجاع ذلك إلى تأخر انطلاقها في هذا المضمار وإلى تحديات مرتبطة بإرث الصورة السابقة الذي يحتاج وقتًا ليتغيّر كليًا

• تكامل وتداخل أدوات القوة الناعمة

بيّنت التجربتان أن أدوات القوة الناعمة تعمل بطريقة متشابكة. فالثقافة والسياحة والإعلام والمساعدات وغيرها ليست مجالات منعزلة، بل يؤدي تعزيز إحداها إلى دعم الأخرى. مثال ذلك: نجاح الإمارات في استضافة إكسبو (فعالية) عزز من صورتها الثقافية والإعلامية[61]؛ وانفتاح السعودية داخليًا (ثقافيًا وترفيهيًا) سهّل عمل إعلامها الخارجي وجعل سرديتها أكثر مصداقية. بالتالي، فإن النهج الشمولي الذي اتبعته الإمارات كان عنصر قوة، ويمكن للسعودية الاستفادة منه عبر تعزيز التكامل بين مبادراتها المختلفة ضمن قصة موحدة ترويها للعالم

• الاستثمار في القيم العالمية يجني ثمارًا

تجارب البلدين تؤكد أن تبني ونشر القيم

التي تحظى بقبول عالمي (كالتسامح، تمكين المرأة، الحوار، الإغاثة الإنسانية) يرفع بشكل ملحوظ رصيد القوة الناعمة. الإمارات ضربت مثالًا في ذلك بتصدير قيمة التسامح كمنتج دبلوماسي[32]، والسعودية قطعت خطوات واسعة في إبراز إصلاحاتها الاجتماعية (مثل زيادة مشاركة المرأة وتمكين الشباب) لتحسين صورتها. كلما تمكنت دولة الخليج من مواءمة خطابها وسلوكها مع القيم العالمية الإيجابية، ازدادت جاذبيتها وتأثيرها المعنوي في الساحة الدولية

• **القوة الناعمة ليست ترفًا بل ضرورة استراتيجية:** أوضحت الدراسة أن دوافع تبني القوة الناعمة لدى الرياض وأبوظبي لم تكن مجرد رغبة تجميلية، بل جاءت كاستجابة لتحديات وضغوط دولية (مثل الحاجة لتحسين السمعة بعد أزمات معينة، أو دعم التحول الاقتصادي بجذب السياح والاستثمارات، أو ملء فراغ القوة التقليدية عبر النفوذ الناعم). وبالتالي، بات يُنظر للقوة الناعمة كجزء من الأمن القومي الشامل – فهي تحصّن الدول ضد حملات التشويه وتكسبها أصدقاء، وتخلق مناخًا دوليًا أكثر تفهمًا ودعمًا لمواقفها

توصيات

انطلاقًا من هذه النتائج، نقدم عددًا من التوصيات التي نرى أنها تعزز من القوة الناعمة الخليجية عمومًا، مع تركيز على المملكة العربية السعودية بحكم أنها في طور بناء تجربتها على ضوء الدروس المستفادة من النموذج الإماراتي

1.وضع إستراتيجية وطنية سعودية شاملة للقوة الناعمة: من المفيد أن تقوم المملكة بصياغة وثيقة إستراتيجية أو إنشاء مجلس أعلى يُعنى بتنسيق جهود القوة الناعمة تحت رؤية موحدة (على غرار مجلس القوة الناعمة الإماراتي[29]). هذا الكيان يمكن أن يضم ممثلين عن وزارات الخارجية، الإعلام، الثقافة، السياحة، والتعليم، إضافة لممثلين عن القطاع الخاص (الشركات الكبرى) والمنظمات غير الحكومية ذات الصلة. مهمته رسم خارطة طريق طويلة المدى لتحسين سمعة المملكة عالميًا، وتحديد الرسائل الأساسية والصورة الذهنية المستهدفة، وضمان تكامل الجهود وعدم تعارض الرسائل الصادرة من مختلف الجهات

2.الاستمرار في الإصلاحات الداخلية وتعزيز الاتساق مع الخارج: لكي تنجح القوة الناعمة، لا بد أن تستند لصورة حقيقية أو شبه حقيقية عن البلد، فليس بالإمكان إقناع العالم برسالة لا يرون تطبيقها على أرض الواقع. لذا على السعودية المضي قدمًا في إصلاحاتها الاجتماعية والاقتصادية (تمكين المرأة أكثر في المناصب القيادية، ترسيخ ثقافة التسامح الديني والفكري محليًا، تحديث المنظومة التعليمية لترعى الإبداع والتعددية). وعندئذ ستتحدث إنجازاتها الداخلية عن نفسها في المحافل الخارجية. كذلك يُنصح بتحسين بعض الملفات الحقوقية – عبر الحوار وضمانات العدالة والشفافية – لأن استمرار الانتقادات الحقوقية يقوّض جهود القوة الناعمة مهما كانت مكثفة

3.تطوير أدوات إعلامية موجهة واحترافية:

رغم التطور الملحوظ في الإعلام السعودي، إلا أنه بحاجة لتوسيع نطاقه العالمي. نقترح دعم إطلاق قناة تلفزيونية عالمية متعددة اللغات تعكس وجهة نظر السعودية بشكل عصري (على غرار قناة «فرنسا 24» أو «سي جي تي إن» الصينية)، وتوظيف كوادر صحافية دولية لإعطاء مصداقية واحترافية للمحتوى. وكذلك الاستثمار أكثر في الإعلام الرقمي ومنصات التواصل الاجتماعي العالمية. كما يمكن تنظيم برامج تبادل للصحفيين بين السعودية ودول غربية لإطلاعهم عن قرب على واقع المملكة الجديد، بما يسهم في بناء جسور مع الإعلام الدولي بدل العلاقة المتشنجة أحيانًا. ولدى السعودية قصص نجاح عديدة يمكن تسليط الضوء عليها عالميًا (مثل قصة بناء مدينة نيوم المستقبلية، أو البرامج البيئية الضخمة كالسعودية الخضراء، أو مبادرات تمكين المرأة السعودية في قطاعات الفضاء والتقنية)، وهذه تحتاج حملات إعلامية ذكية لتصل لجمهور واسع

4.تعميق الدبلوماسية الثقافية والتعليمية: يمكن للسعودية أن تؤسس مراكز ثقافية سعودية عالمية تحت إشراف وزارة الثقافة، تنتشر في عواصم مختارة (مثل باريس، لندن، بكين، واشنطن، القاهرة وغيرها)، أسوة بمعاهد جوته الألمانية أو المعهد الفرنسي. هذه المراكز تعرف بالثقافة السعودية المعاصرة وتراثها، عبر تنظيم أسابيع ثقافية وعروض فنية ودروس لغة عربية وأنشطة تفاعلية مع المجتمع المحلي. من جهة أخرى، يستحسن زيادة المنح الدراسية للطلاب الأجانب للدراسة في الجامعات السعودية، خاصة في مجالات العلوم الإسلامية والعربية، فهذا يخلق نخبًا أجنبية شابة تتقن لغة المملكة وثقافتها وتكون أقرب إليها (تمامًا كما فعلت أمريكا عبر برنامج فولبرايت مثلا). ويمكن استلهام تجربة الإمارات في استقطاب جامعات عالمية وإنشاء فروع لها داخل السعودية (مثل فتح فرع لجامعة عالمية في مشروع مدينة الملك عبد الله الاقتصادية أو في نيوم)، مما يعزز تبادل المعرفة والثقافة

5.استثمار القوة الناعمة الدينية بشكل إيجابي وشامل: لدى السعودية ميزة لا تنافسها فيها أي دولة وهي الحرمين الشريفين. ويمكن تعظيم أثر هذه الميزة عبر مبادرات حوار حضاري تنطلق من الأماكن المقدسة. مثلًا، يمكن تنظيم مؤتمر دولي سنوي في مكة المكرمة خلال موسم الحج تحت عنوان «السلام والتضامن الإسلامي» يدعى له قادة الفكر من مختلف الدول الإسلامية، ليخرج برسائل وحدة وتسامح تنشر بالعالم. أيضًا يمكن للسعودية إقامة معارض متنقلة عن تاريخ الحرمين والقيم الإسلامية وتنقلها إلى متاحف عالمية (تجربة معرض «طرق التجارة في الجزيرة العربية» كانت ناجحة في عدة متاحف عالمية ويمكن البناء عليها). كما يُقترح توسيع برامج ضيوف خادم الحرمين لتشمل رموزًا من غير المسلمين (مثل دعوة شخصيات أكاديمية أو إعلامية عالمية لزيارة الحرمين – مع احترام

خصوصية المكان – لكي يشاهدوا مباشرة جهود السعودية في خدمة ملايين الحجاج، ما قد يصحح تصورات مغلوطة لديهم). كذلك من المهم استمرار جهود رابطة العالم الإسلامي في مد جسور مع المؤسسات الدينية حول العالم وبرعاية رسمية سعودية، فهذا المجال إذا أحسن استخدامه سيظل مصدر قوة ناعمة حصري للمملكة لا تستطيع أي دولة أخرى مجاراتها فيه

6.تعزيز التعاون والتكامل الخليجي في مجال القوة الناعمة: على الرغم من أن هذه الدراسة ركزت على المقارنة، لكن يجدر التنبيه أن تعظيم القوة الناعمة الخليجية يتحقق بالتكامل أيضًا. يمكن للسعودية والإمارات – ومعهما بقية دول مجلس التعاون – إطلاق مبادرات ثقافية أو إنسانية مشتركة تحت راية الخليج ككل، مما يعطيها زخمًا أكبر. مثلًا: تنظيم عواصم الثقافة الخليجية بالتناوب سنويًا (فكرة مشابهة لعاصمة الثقافة العربية ولكن بنكهة خليجية مشتركة)، أو تأسيس صندوق خليجي للتنمية الثقافية والإنسانية يمول مشاريع في الدول الفقيرة باسم الخليج ككتلة واحدة. هذا يرسّخ صورة الوحدة والتعاون ويضاعف التأثير، كما يخفف التنافس غير الضروري. أيضًا يمكن تبادل الخبرات بين الإمارات والسعودية في مجال التدريب الإعلامي والدبلوماسي؛ مثلاً، إنشاء برامج تدريب لموظفي الخارجية السعودية في معهد دبلوماسي إماراتي على أساليب الدبلوماسية العامة الحديثة، مقابل استفادة إعلاميي الإمارات من مراكز التدريب الإعلامي السعودية الكبرى، وهكذا شراكات win-win. القوة الناعمة ليست لعبة محصلتها صفر، بل يمكن بالتنسيق ارتفاع الكل معًا، خاصة أن لدى كل دولة خليجية نقاط قوة مختلفة (الكويت بارزة في المجال الخيري الشعبي، قطر في الرياضة والإعلام، عُمان في دبلوماسية السلام...إلخ)، وتكامل هذه المزايا يعزز "القوة الناعمة الخليجية" الشاملة

7.تركيز الرسائل بحسب الجمهور المستهدف: من المفيد لكل من السعودية والإمارات تفصيل خطاب القوة الناعمة وفق شرائح الجمهور العالمي المختلفة. فالجمهور الغربي قد يهتم أكثر برسائل حول حقوق المرأة والإصلاح الاجتماعي ومساهمة البلد في القضايا العالمية (المناخ، مكافحة الإرهاب)، بينما الجمهور الآسيوي قد يهمه فرص العمل والاستثمار والسياحة الحلال، والجمهور الإسلامي تهمه جهود البلدين في دعم القضايا الإسلامية ومكانة الدين. وعليه، يمكن تبني حملات تواصل متوازية: حملة موجهة لأوروبا وأمريكا تبرز جوانب الانفتاح والتحديث، وحملة موازية للعالم الإسلامي تبرز جانب رعاية الحرمين ودعم المسلمين، وحملة لأفريقيا تركز على المشاريع التنموية الإماراتية-السعودية هناك، وهكذا. هذا التخصيص يضمن وصول الرسالة المناسبة لكل مجتمع بشكل أكثر فاعلية وتجنب سوء الفهم

8.المتابعة والتقييم المستمر: أخيرًا، يوصى

بـأن تنشـئ الحكومتـان آليـات لقيـاس دوريـة لقوتـهما الناعمـة. يمكـن أن تكـون عبر مـؤشر وطنـي سـنوي يسـتطلع آراء جمهـور عالمـي حـول صـورة السـعودية/الإمارات (كما تفعـل مؤسسـات دوليـة كبرانـد فايننـس[69] أو غالـوب). أيضًـا تحليـل مضامين الإعلام العالمـي ووسـائل التواصـل لمعرفـة كيـف يتـغير senti-ment الجمهـور تجـاه سياسـات البلديـن مـع الوقـت. هـذا التقييـم المسـتمر يسـاعد على تحديـد جوانـب الضعـف ومعالجتهـا سريعًـا، ورصـد الفـرص وتعزيزهـا. فمـثلاً إذا وجـدت السـعودية أن صورتهـا لا تـزال سـلبية في بلـد أوروبي مـعين رغـم جهودهـا، يمكـن زيـادة العمـل الدبلومـاسي العـام هنـاك (عبر سـفارتها وتنظيـم فعاليـات إضافيـة). وقـد يكـون مـن المجـدي أيضًـا عقـد مؤتمـر سـنوي أو منتـدى في كل بلـد تحـت عنـوان القـوة الناعمـة يجمـع الـخبراء والمسـؤولين لمناقشـة الإنجـازات والتحديـات وتحديـث الإستراتيجيـات – هكـذا منتـدى وطنـي موجـود في بعـض الـدول (مثـل اليابـان لديهـا منتـدى عـن الدبلومـ

المقترحات

1. إنشـاء مركـز خليجـي للقـوة الناعمـة لتبـادل الـخبرات بين دول مجلـس التعـاون الخليجـي، وتنسـيق الاستراتيجيـات لتعظيـم التـأثير الإقليمـي والـدولي

2. تطويـر مـؤشرات لقيـاس نجـاح القـوة الناعمـة مـن خلال تصميـم أدوات قيـاس كميـة ونوعيـة لتقييـم أثـر المبـادرات الثقافيـة والدينيـة والتعليميـة والإعلاميـة على المسـتوى الـدولي

3. تعزيـز التعـاون بين القطـاعين العـام والخـاص والمتمثـل في دعـم مبـادرات الشركات والمؤسسـات الخاصـة التـي تسـهم في نشر الثقافـة والابتـكار والتسـامح، بمـا يعـزز القـوة الناعمـة للدولـة

4. إعـداد برامـج تدريبيـة متخصصـة لتأهيـل الكـوادر الوطنيـة على اسـتخدام أدوات القـوة الناعمـة بشـكل احترافي في مجـالات الإعلام والدبلوماسـية والثقافـة والرياضـة

5. إجـراء دراسـات مقارنـة مسـتمرة لمتابعـة تطـورات القـوة الناعمـة في الخليـج مقارنـة بالـدول الأخـرى لتحديـد نقـاط القـوة والضعـف وتحـسين الأداء الاستراتيجـي

خاتمة

تؤكـد الدراسـة أن القـوة الناعمـة باتـت مـضمار تنافـس إيجـابي بين دول الخليـج يدفـع كلًا منهـا لتحـسين ذاتـه وخدمـة شـعبه وشـعوب العـالم عبر الثقافـة والمعرفـة والـسلام. وإذا كانـت الإمـارات قـد نجحـت بامتيـاز في هـذا المـضمار خلال العقـد الماضي، فـإن السـعودية تخطـو بثبـات نحـو الموقـع ذاتـه مسـتفيدةً مـن مواريثهـا الخاصـة ومـن تجـارب أشـقائها. ومـن المتوقـع خلال العقـد القـادم أن نشـهد تبلـور نمـوذج خليجـي متكامـل للقـوة الناعمـة يمـزج الحداثـة بالتقاليـد، والديـن بالتعدديـة، والثروة بالعطـاء، ليقـدم صوتًـا حضاريًـا قويًـا مـن منطقـة طـالما وُصفـت بأنهـا تعتمـد القـوة الصلبـة فقـط. هـذا التحـول سـيكون لصالـح اسـتقرار المنطقـة وازدهارهـا وتعزيـز دورهـا كشريـك مؤثـر ومسـؤول في المجتمـع الـدولي

المراجع:

1- اتجاهات النخب نحو مستقبل الدبلوماسية الثقافية السعودية في ظل رؤية 2030 – مركز القرار للدراسات الإعلامية. https://alqarar.sa/8777

2- ترتيب السعودية في مؤشر Place- 2024 BrandObserver – (2024).

3- تقرير مؤشر القوة الناعمة 2025 Brand Finance- (2025).

4- جوزيف ناي، «القوة الناعمة: وسيلة النجاح في السياسة الدولية» (1990).

5- حاضر القوة الناعمة ومستقبلها في العالم العربي | الجزيرة نت. https://www.alja-zeera.net/blogs/2024/10/28

6- جدول مؤشر القوة الناعمة (2020-2025) (2025) ORF-.

7- سعوديجازيت – رؤية 2030 والمساعدات السعودية (2025).

8- الشرق الأوسط – السعودية تستثمر 64 مليار دولار في الترفيه (2018). https://aawsat.com/home/article/1183731

9- القوة الناعمة لدولة الإمارات العربية المتحدة – مجلة الجندي – مجلة عسكرية ثقافية شهرية https://www.aljundi.ae

10- قفزة الإمارات في الترتيب بعد إكسبو و (COP28 (2025 ORF-.

11- مدونات الجزيرة – حاضر القوة الناعمة ومستقبلها في العالم العربي (2024).

12- منصة المساعدات السعودية – سعوديجازيت (2025).

13- مدونات الجزيرة – ترتيب الإمارات والسعودية عالميًا (2024).

14- مجلة الجندي – الإمارات ضمن العشرة الأوائل في القوة الناعمة (2025).

15- مجلة الجندي – مكانة القوة الناعمة الإماراتية مقابل الصلبة (2025).

16- مجلة الجندي – دور وزارة التسامح في القوة الناعمة الإماراتية (2025).

17- مجلة الجندي – وزارة السعادة واستراتيجية السعادة (2025).

18- مركز المستقبل – وثيقة الأخوة الإنسانية وأثرها (2021).

91- مركز المستقبل – اتفاقات إبراهيم ودعم مكانة الإمارات (2021).

20- مركز القرار – رؤية 2030 وتعزيز المكانة الثقافية السعودية (2025).

(تمت المحافظة على صيغة citations للأمانة العلمية وحفاظًا على المراجع كما طلب)

21- ملامح القوة الناعمة السعودية في ظل رؤية 2030 - جريدة الرياض https://www.alriyadh.com/1896409

22- محمد بن راشد يعلن تشكيل «مجلس القوة الناعمة لدولة الإمارات» لتعزيز مكانتها إقليميا وعالميا | وكالة أنباء الإمارات. https://www.wam.ae/ar/article/hszr5d2p-%

23- موضوع رقم السياحة الثقافية - وزارة الثقافة السعودية https://www.moc.gov.sa/-/media/Project/Policython/Events/Moc/Ministries-Policy-Tourism_Cultural/files_thon pdf

24- مجلة الجندي – القوة الناعمة لدولة الإمارات (2025).

25- المساعدات السعودية 60% من مساعدات الخليج 2017-1963 (2025) ORF-.

26- مركز القرار – دراسة الدبلوماسية

الثقافيـة السـعودية (2025).
27- مركـز المسـتقبل – Expo 2020 and UAE's soft power (2021).
28- نتائـج الاسـتثمار في اسـتضافة الأحـداث عـلى ترتيـب القـوة الناعمـة (الإمـارات وقطـر) (2025) ORF-.
29- وكالـة وام – بيـان تشـكيل مجلـس القـوة الناعمـة الإمـاراتي (2017).
30- وزارة الخارجيـة الإماراتيـة – حقائـق وأرقـام المسـاعدات (2018).
31- وكالـة وام – إجـمالي المسـاعدات الإماراتيـة منـذ 1971 (2024).
32- ويكيبيديـا – مجموعـة MBC وعـدد مشـاهديها.
33- وقفـة تأمليـة في نمـاذج القـوة الناعمـة في المملكـة العربيـة السـعودية
https: //www.arabic.org/index.php?option=com_content&id=4677&catid=31&Itemid=172&ticle=2023-07-30-10-14-6676:ar-view
Brand Finance's Global Soft Power In- 34-dex 2024: USA and UK ranked
https://brandfinance.com/press-releases/brand-finances-global-soft-power-index-2024-usa-and-uk-ranked-top-nation-brands-china-takes-third-place-overtaking-japan-and-germany
35-Future Center - How Expo 2020 Dubai strengthens the UAE's soft power?https://futureuae.com/enus/Mainpage/Item/6723/strategic-gains-how-expo-2020-dubai-strengthens-the-uaes-soft-power.
36-Al-Riyadh/The-UAE/Facts-and-Figures https://www.mofa.gov.ae/en/Missions
37- Ministry of Foreign Affairs
38-MBC Group – Wikipedia/ https://en.wikipedia.org
39-Saudi Arabia - Country Performance, Brand Strength, Reputation https://placebrandobserver.com/saudi-arabia-country-performance-brand-strength-reputation/
40-Saudi Arabia is among world's top donors with assistance worth SR528 billion | Saudi Gazette https://www.saudigazette.com.sa/article/653205
41-The Rise of Soft Power in the Gulf: A Comparative Analysis of GCC Strategies – ORF(2025) Middle East https://orfme.org/research/the-rise-of-soft-power-in-the-gulf-a-comparative-analysis-of-gcc-strategies/
42-UAE Ranks Among Top 10 in Brand Finance Global Soft Power Index 2025 - ATB Legal https://atblegal.com/blog/uae-tenth-brand-finance-soft-power-index-2025/
43-UAE foreign aid hit AED 360 billion since 1971 | Emirates News Agency https://www.wam.ae/en/article/b6i89id-uae-foreign-aid-hit-aed-360-billion-since-1971

أثر التغيرات المناخية في تخطيط المدن العربية في الدول المشاطئة للبحر الاحمر وخليج عدن

□ . د .رحيمة عبدالرحيم محمد عبدالعزيز
باحثة مقيمة في مؤسسة اليوم الثامن للإعلام والدراسات

ملخص :-

يعتبر المناخ احد العوامل الطبيعية التي تراعى عند تصميم وتخطيط بصفة عامة وتصميم التجمعات السكنية بصفة خاصة فهو احد محددات اختيار كل من مواقع المدن ومواضيع أنشطتها وتوزيع وتشكيل الكتل البنائية والفراغات المحصورة فيما بينها وكل الفراغات الداخلية للمنشأت ، ويجب الأخذ بعين الاعتبار اثر المناخ في تخطيط المدن أو مراكز العمران بصفة عامة

فأتساع الطرق وارتفاع المباني وتوزيع المساحات الخضراء أي المنتزهات والحدائق العامة تحددها جملة من عوامل مناخية

لضمان وصول نسبة كافية من الاشعاع الشمسي الى المساكن خاصة في الإحياء المزدحمة بالسكان بل أن أختيار مواقع أو مراكز العمران يدخل في تحديده عامل المناخ حتى لاتقام في جهات غير ملائمة كان تقام في أماكن معرضه لجرف السيول

تعتبر أستقرارية المبنى ومقاومتة للظروف الجوية من الأمور الأساسية التي هي من صلب واجبات مهندس تصميم المباني ، حيث أن الكثير من الظروف الجوية تضيف حملاً أضافيًا على المبنى ينبغي حساب كميته بدقة إذ أن العوامل المناخية تسبب فتيلاً خطيرًا على هيكل المبنى في حين تعمل عوامل مناخية أخرى على تأكل واستهلاك أجزاء كثيرة من المبنى ، أن أكثر حوادث انهيار المباني خطورة هي تلك التي تسببها الرياح أو الفيضانات أو كليهما ، يجب الأخذ أثناء التخطيط العمراني الاهتمام بالظروف المناخية عند تصميم الوحدات السكنية من أجل إيجاد وحدات سكنية تلبي حاجات الانسان وتوفر له الراحة على ضوء مؤشرات علمية

ففي المناطق الباردة يلاحظ اتساع الشوارع بشكل كبير وارتفاع المباني وذلك رغبة في الحصول على نصيب ملائم من أشعة الشمس كما هو الحال بالنسبة للأقاليم المدارية الحارة الملكة العربية السعودية واليمن والصومال وجبوتي والأجزاء الجنوبية من السودان التي تقاوم أشعة الشمس القوية بتضييق الشوارع وتشجيرها بهدف توفير الظل والتظليل قدر الامكان من فتحات المنازل مع ضرورة توفير التهوية اللازمة في المناطق غزيرة الامطار حيث يقاوم الانسان كثرة الامطار ببناء أسطح مائلة للمنازل دون تجمع للمياه كما ان لاتجاه الرياح اثره في تحديد مواقع المنشأت الصناعية وفي تحديد اتجاه نوافذ المنازل وخاصة في الاقاليم المدارية الجافة

العوامل المساعدة في تكوين مناخ المدن العربية في الدول المشاطئة للبحر الاحمر وخليج عدن

مناخ المدينة يختلف عن مناخ أطراف المدينة وفي أقليم مناخي تختلف تفاصيل المناخ المحلي بين مدينة وأخرى لجملة من الأسباب هي

1- اختلاف المواد المستعملة في البناء :

تتكون بنايات المدن في الدول المشاطئة للبحر الاحمر وخليج عدن من الطابوق والاسمنت والحجر والحديد وشوارعها مرصوفة بالحجر والاسفلت في حين تكون أبنية أطراف المدن من الطين أو اقل استخدامًا لهذه المواد كما أن الطرقات في أطراف المدينة نادرًا ماترصف بالإسفلت حيث أن الاسمنت يستوعب كمية من الطاقة تفوق الكمية التي يستوعبها الطين بثلاث مرات

2- اختلاف أشكال واتجاهات بنايات المدينة عن أطرافها :

وذلك لان نظام التسخين في

المدينة نظام معقد ، بينما نظام التسخين في أطرافها نظام بسيط ، وأن الأشعة الشمسية الساقطة على المدينة تتضخم وذلك بسبب جدران الأبنية تعكس الأشعة الساقطة عليها فيعود جزء منها إلى أرض المدينة مما يضخم هذه الأشعة بينما في أطرافها تسقط الأشعة لوحدها دون تضخيم بل أن أجزاء من هذه الأشعة قد يحجب بواسطة الأشجار التي تمنع الا شعة من الوصول الى سطح الارض في أطرافها ومما يزيد من حالة تعقيد الأبنية العالية في المدينة المكتسبة تحجب وتخفف من سرعة الرياح داخل المدينة مما يجعل من بطء تبدد الطاقة المكتسبة في المدينة بينما أرض أطرافها المفتوح تسمح بتبدد للطاقة من أرض الريف

3- المدينة مولد كبير للطاقة :

الكثافة السكانية العالية في المدينة يتطلب استخدام كبير لوسائط النقل والتي منها شخصية ، كما يستخدم هؤلاء الناس الوقود لأغراض الطبخ والتدفئة والتبريد مع عدد كبير من المعامل الصناعية التي تستخدم

الوقود بكميات كبيرة ' يجعل المدينة كمولد ضخم للطاقة والمعروف أن حرق الوقود يحرر طاقة حرارية ، وكمية هذه الطاقة الحرارية المحررة في المدينة كبيرة جدًا

4- طريقة تصريف مياة الامطار في المدينة :

نظام تصريف المياة يجعل هذه المياة تتصرف بسرعة الى المجاري المخصصة لها ، كما أن مواد البناء والطرق في المدينة تتكون من مواد لاتمتص الماء بينما في أطراف المدن تمتص التربة قدرًا كبيرًا من مياة الا مطار ، بينما الطرقات في المدينة جافة لذلك تستهلك تربة اطرافها كمية كبيرة من الطاقة الواصلة للأطراف في تبخير الماء ، إذا علمنا ان كل غرام من الماء يحتاج إلى 580)) سعره لكي يتبخر بينما الثلج يحتاج الى 660)) سعره لكي يتبخر وبذلك رطوبة التربة في أطراف المدن تستهلك كميات كبيرة من الطاقة لأغراض التبخير بينما الطاقة الواصلة للمدن تستعمل كلها في التسخين وبذلك تحتل الموازنة الحرارية في المدن لمصلحة رفع حرارتها

نسبة التلوث في هواء المدن العربية في الدول المشاطئة للبحر الاحمر والبحر العربي أعلى من أطرافها بكثير فالمعامل والسيارات تحمل الهواء في المدينة مواد ملوثة صلبة وسائلة وغازية ، وان نسبة (80%) من المواد الملوثة الصلبة صغيرة الحجم جدًا بحيث أنها تستطيع البقاء معلقة في الهواء إلى أن يأتي المطر ليسقطها ، هذه المواد الصلبة تقلل من الإشعاع الشمسي الوارد على ارض المدن العربية وبنفس الوقت تقلل من هروب الإشعاع الأرضي من المدن ، كما ان المواد تعمل كنوويات تكاثف لذلك تزداد نسبة التقييم في المدن كما يتزايد تكرار الضباب ولما كانت بعض الغازات عبارة عن بخار الماء وغاز ثاني أكسيد الكربون فأن هذه الغازات تمتص الأشعة الأرضية بكفاءة إي هذه الغازات تعمل عمل البيوت الزجاجية في أنها تمنع الاشعاع الأرضي قد يوازن أو يزيد عن الاشعاع الشمسي الذي تحجبة بالغيوم والضباب أو المواد الملوثة الصلبة قد تحتوي الملوثات الغازية أحيانًا على غازات خطره مثل غاز ثاني اكسيد السلفر ويذوب هذا الغاز بمياة الامطار مكونًا أمطار حمضية وهي ملوثات المدينة إذ تعمل على رفع درجة حرارة المدينة بالإضافة إلى التأثير الصحي السيء لهذه الملوثات

ان هذه العوامل جميعًا عملت على

إعطاء صفات خاصة لمناخ المدينة جعلته يختلف عن مناخ أطرافها المجاور فمناخ المدينة وإطراف المدينة اكثر حراره من الريف فتزداد نسبة التقييم ونسبة تكرار الضباب كما تنخفض سرعة الرياح ويقل الاشعاع الشمسي في جو المدينة بالريف المجاور

ان التغيرات في مناخ المدينة هي هي بسبب عوامل ثابته وعوامل متغيرة فلأبنية والأسفلت أي شكل المدينة هي من العوامل الثابتة بينما كمية الطاقة المولده في المدينة وكذلك نسبة التلوث في هواء التلوث هي من العوامل المتغيره وهذه العوامل تختلف بين الصيف والشتاء وبين أيام العطل وايام العمل كما تختلف هذه العوامل ومن ثم تأثيرها بحسب اختلاف الوظيفة الأساسية للمدينة وحجمها وكثافة السكان فيها فالمدن الصناعية يكون تأثير هذه العوامل فيها واضحًا وكلما قل التركيز الصناعي قل وضوح هذه العوامل كما تلعب الكثافة السكانية دورًا في بروز هذه العوامل ، فكلما قلت الكثافة السكانية قل تأثير هذه العوامل ولكن مع ذلك مايجمع هذه المدن جميعًا أنها ذات مناخ يختلف بشكل أو باخر عن مناخ المنطقة المجاوره

وقد ادرك الانسان منذ القدم تأثير عناصر المناخ في تخطيط المستوطنات البشرية في الدول المشاطئة للبحر الاحمر والبحر العربي وخليج عدن وضروره أخذها في الاعتبار عند التخطيط وان تجاهلها يأتي بعواقب وخيمة على سكانها وعند اختيار الموقع وتخطيط المستوطنات البشرية يراعي التالي

1- إختيار الموقع المناسب للخصائص المناخية والبيئية السائدة في المنطقة .

2- تخطيط الشوارع والطرقات بما يتناسب مع الخصائص المناخية للموضع .

3- تصميم المباني خارجيًا وداخليًا بما يتناسب مع البيئة المناخية السائدة.

المناخ وتخطيط المدن العربية في الدول المشاطئة للبحر الاحمر وخليج عدن

تلعب عناصر المناخ دورًا مهمًا في تخطيط المستوطنات من حيث تقارب المباني وتباعدها ،واتجاه واتساع الشوارع والطرقات ويختلف تأثيرها في تخطيط المدينة والعمران

حيث راعى الانسان في النمط القديم

عند تخطيط المدينة لبناء مسكنة المعطيات المناخية المحلية متمثلة بسمك الجدران وجعل الشبابيك على اصغر حجم ممكن وعلى ارتفاع عالي للسقوف أضافه الى جعل الشوارع ضيقة ومتجه وكان ذلك سببًا رئيسيًا في الحصول على جو داخلي مريح وكذلك استخدام مادة بناء مناسبة كالجص والخشب،كما التضليل الخارجي عن طريق بناء الطارمات والمخلات كان سببًا رئيسيًا في تخفيف الحرارة الواقعة على الجدران وكذلك التشجيرحول المساكن وعلى طول الطرقات وكلها اجراءات تؤدي الى التقليل من حدة الأشعة الساقطة على المساحات الفارقة وعلى المباني

اوجد النمط الحديث للابنية ظروف مناخية خاصة وهو ما يطلق علية بمناخ المدينة حيث يختلف عن مناخ الريف ولقد تطورت الدراسات المتعلقة بمناخ المدينة

تخطيط المدينة القديمة (مدينة شبام)

تقع مدينة شبام على ربوة ترابية تحيط بها ارض زراعية من كل الجهات تقريبًا ونظرًا لضيق المساحة الافقية انطلق بنيانها الى عنان السماء حتى وصل في بعض الأحيان الى تسعة ادوار من الطين ونظرًا لضيق المساحة فقد

تـم تخطيـط المدينـة بطريقـة دقيقـة ومنتظمـة ، وكان التوسـع الـرأسي نتيجـة ضروريـة لذلـك وبالرغـم مـن ضيـق المسـاحة وانعكاسـها على عـدد السـكان الا ان يجـب ان يتوفـر للمدينـة نـوع مـن الرهبـة حتـى يشـعر العـدو بضالتـه ازاء تلـك المبـاني الشماخـة والقويـة ، ونظـرًا للأهميـة

كان مـن الضروري تخطيـط المبـاني العامـة للمدينـة بحيـث تلبـي حاجـة البيئـة والظـروف المناخيـة والعـادات والتقاليـد الاجتماعيـة

تميـزت الـعمارة الطينية في مدينة شـبام بالبسـاطة والفخامـة وتتـجلى البسـاطة في اسـتخدام المـواد الأوليـة في البنـاء مثـل الحجـر والـطين واشـجار السـدر وجـذوع النخيـل وببسـاطة مرتبطة بالـدوق الفني والانسـجام الـجمالي كما كانـت ايضًـا بسـاطة مقرونـة بعلـم واسـع بالفطـرة والتجربـة لهندسـة البنـاء في وضـع نمـاذج فريـدة ومميـزة والتـي ضمنـت وظيفـة تلبـي حاجـة البيئـة والظـروف المناخيـة

ان مدينـة شـبام (ناطحـات السـحاب) تتميـز عـن بقيـة المـدن العربيـة المطلـة على البحـر العـربي وحليـج عـدن بعلـو مبانيهـا والتـي تصـل الى تسـع طوابـق مـن الـطين وهـذا فيـه نـوع مـن الجـرأة الهندسـية حيـث وفـرت الواجهـات المرتفعـة ذات النتـوءات البـارزة مسـاحات كـبيرة مـن الظـل الـذاتي ، والمعكـوس على سـاحات تلـك المبـاني ، والتـي كانـت معظمهـا تـطلى بالنـوره البيضـاء (الـجير الـكلسي) وذلـك يعكس أشـعة الشـمس ، ان مبـاني مدينـة شـبام بنيـت مـن الطوب الطينـي والـذي يسـمى (المـدر) في وادي حضرمـوت) ، حيـث يسـتخدم بأحجـام مختلفـة في البنـاء باسـتثناء مسـجد الجامـع الـذي بنـي في عهـد هـارون الرشـيد حيـث بنـي بالطـوب المحـروق وهـو طابـع فريـد ومميـز للمسـجد الإسلامـي ببهـو الأعمـدة وذلـك للتهويـة والإضـاءة الطبيعيـة كما يتمثـل في انـه نجـح في خلـق تعـبير مـعماري جديـد عـن طريـق تشـكيل وتنظيـم العنـاصر التركيبيـة والإنشـائية التـي وردت في الـعمارات الطينيـة القديمـة حيـث كانـت مراكزهـا الرئيسـية في العـراق والشـام

بالرغـم مـن ارتفـاع مبـاني شـبام وتلاصقهـا ببعضهـا البعـض الإ انـه لاتتسـنى الرؤيـة الافقيـة للمنـازل المجـاورة وفي المسـاء تكـون متنفسًـا لاهـل المنـزل يتسـامرون فيهـا وخاصـة في الصيـف حيـث يكـون المنـاخ حـارًا فتهـب في المسـاء نـسمات صحراويـة جميلـة منعشـة وصحيـة تعـوض حـرارة النهـار وتلاطـف الجـو والمنـاخ

اثر المناخ في تخطيط معظم احياء مدينة عدن

لقد لعب المناخ دورًا هامًا في تخطيط معظم إحياء مدينة عدن ، وذلك من خلال الامتداد الافقي والعمودي للبناء ، وحجمه ووجهته ودرجه تباعده عن بعضه البعض ، واتساع الشوارع ووجهتها ومحاورها ، كان لتخطيط معظم احياء المدينة دورًا بارزًا في التحكم بزيادة درجات الحرارة وقلة سرعة الرياح إلا أن هناك بعض الأحياء والمناطق الأخرى امتازت بتخطيطها الجيد بما يتناسب مع حالات الجو بسبب وجود المساحات الفارغة بين المباني ومن هذه المناطق التي تمتاز بمجال تهوية أفضل من غيرها في مدينة نذكر منها على سبيل المثال : مشاريع الوحدات السكنية في كل من (كريتر ، المعلا ، خورمكسر ، المنصوره ، الشيخ عثمان) والمعروفة باسمائها الشهيرة (المشروع السعودي بالمعلا ، المدينة البيضاء في خورمكسر ، ريمي ونجوى مكاوي في المنصوره ، عبدالعزيز وعمر المختار في الشيخ عثمان) اضافة الى ذلك تخطيط كل من الشارع الرئيسي بالمعلا ، وساحة العروض وحي السفارات بخورمكسر ، جاء ليتوافق مع

مناخ المدينة ، ويخفف من التأثير عليه .

كما امتازت مواد البناء القديمة والموجوده بشكل كبير في مدينة عدن بخاصية اختزان الرطوبة الجوية والارضية بداخلها مما ساعد على إضافة الرطوبة وانتشارها في الأحياء السكنية القديمة .

النتائج

1- تعتبر درجة الحرارة أهم عنصر مناخي بعد الاشعاع الشمسي من حيث التأثير على تصميم مخطط المدينة والمباني ، ففي المباني تؤثر درجة الحرارة على نوع المادة المستخدمة في عملية البناء وشكل المبنى وذلك لتوفير حرارة ملائمة لراحة الانسان داخل المدينة.

2- المهندس المصمم لمخطط المدينة والمباني يزيد من سمك الجدران

3- ان الرياح ذات تأثير كبير على تصميم المخطط في المدينة حيث يتحكم اتجاه وسرعة الرياح في اختيار واجهة الشوارع والمباني وشكل وحجم النوافذ وموقعها في جدران المنزل وذلك لتوفير تهوية ملائمة داخل المبنى ، والشبابيك لها تأثير كبير إذ ان حجمها واتجاهها في المكان الصحيح من البناء من اجل المحافظة على انسيابية الهواء داخل المسكن .

4- يؤثر الهطول على شكل المبنى الخارجي وهذا يلاحظ في المدن العربية غزيرة الامطار وقليلة الامطار وأيضًا يؤثر التبخر والرطوبة على تصميم المنازل وذلك لما لها من تأثير على مدى شعور الانسان بالراحة داخل المنزل ، واثر ذلك على واجهات المنا زل في المناطق الساحلية .

5- المياة المتجمعة بعد هطول الامطار من الشوارع والازقة والاستفادة منها في عملية التشجير وخاصة في المدن العربية الجافة .

6-

7- التوصيات

8- استخدام اسلوب تكتل المباني والتفريق فيها بالاغشية الداخلية .

9- تحديد اتجاه البناء مراعيًا في ذلك شروق وغروب الشمس .

10- استخدام كاسرات الصور .

11- مراعاة المواد المستخدمة في البناء بحيث تكون لها قابلية كبيرة على عكس الاشعة او قابلية كبيرة في العزل الحراري وذلك لتقليل من الامتصاص للاشعة وكذلك التقليل من

قابلية التوصيل الحراري .
12- إعطاء أهمية لمسألة التشجير في المدن العربية الواقعة في المناطق الحارة التي تتميز بأرتفاع درجة الحرارة
13- الاهتمام بتحديد الارتفاعات والمقاسات لأسقف المباني وفق البيئات المختلفة .
14- أستخدام مواد عازلة عند السقوف تتكون من طبقتين .
15- تحديد اتجاه الشبابيك وتكون واسعة وكذلك ارتفاع اسقف المباني .
16- استغلال أسطح المباني المستوية كمناطق مفتوحة (حديقة السطح) .
17- استخدام فكرة المبنى ذو الفناء الداخلي المنظم لدرجات الحرارة .
18- زرع الأشجار والنباتات واستخدام النافورات في الاماكن العامة .
19- عمل مصدات رياح نهاية شوارع المدن والازقة كمصايد للرياح .
20- المراجع والمصادر
21-
22- علي أحمد غانم، المناخ التطبيقي، دار المسيرة، عمان، الطبعة الأولى، عمان، 2010م.
23- رياض محمد عبدالله الشميري، رسالة ماجستير بعنوان (تأثير الظروف المناخية على التجمعات السكنية بالمدن الصحراوية بصعيد مصر، مدينة اسيول 2006م.
24- مؤمن محمد ذيب، التخطيط العمراني من منظور جغرافي، غزة، 2013م.
25- عباس محمد الزعفراني، التصميم المناخي للمباني، رسالة دكتوراه.
26- غيد باسر باجنيد، تأثير المناخ على الشكل المعماري، مجلة الهندسة والتنمية، المجلد الرابع عشر، 2010م.
27- قصي عبدالمجيد السامرائي، المناخ والأقاليم المناخية، دار البازوري العلمية للنشر والتوزيع، الطبعة العربية، عمان-الأردن، 2008م.
28- عبدالفتاح محمد وهيبة، جغرافية العمران، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م.
29- مصطفى بدر، تنسيق وتجميل المدن والقرى، منشأة المعارض، الإسكندرية، الطبعة الثانية، 1992م.

عرض كتاب «تاريخ مصر من العهد العثماني إلى قُبيل الوقت الحاضر»

عرض: رئيس التحرير

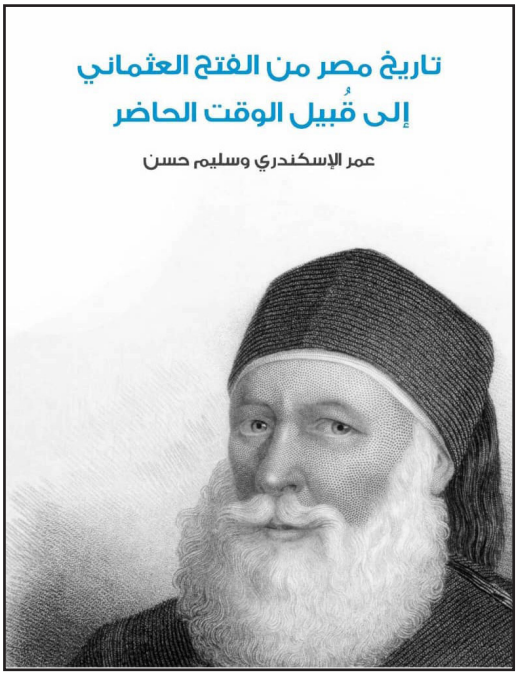

المقدمة

كتاب «تاريخ مصر من العهد العثماني إلى قُبيل الوقت الحاضر»، تأليف عمر الإسكندري وسليم حسن، مراجعة أ. ج. سفدج، الناشر مؤسسة هنداوي، 4102م، جاء الكتاب في ثلاثة أبواب، خُصِّص الباب الأول لتاريخ مصر في عهد الدولة العثمانية في ثلاثة فصول، وأُفرِد الباب الثاني لتاريخ مصر من الحملة الفرنسية إلى انتهاء عهد محمد علي باشا في ثلاثة فصول أيضًا، وجُعِل الباب الثالث لتاريخ مصر بعد محمد علي في أيام الخديوي إلى عهد الاحتلال البريطاني في سبعة فصول، ويُختَم كل باب بملخص لأبرز الأحداث التي شملتها المدة التي تناولها المؤلفان في الباب، وجاء الكتاب في 613 صفحة يمكن عرض متنه بشكل موجز على النحو الآتي:

الباب الأول: عهد الدولة العثمانية

الفصل الأول: الفتح العثماني لمصر

قامت بين الدولة العثمانية ودولة المماليك في مصر منذ عصر برقوق وبايزيد الأول صلات ودية ومعاهدات، وظلَّت حتى زمن بايزيد الثاني الذي توترت علاقته بالسلطان قايتباي بسبب إيواء الأمير «جم»، والنزاع على إمارة أبناء ذي الغادر، والهدايا الهندية، فاندلعت الحرب بين الطرفين في الشام، وانتصر المصريون أولًا، ثم عقد الصلح، إلَّا أنَّه أورث عداءً ومنافسة على زعامة العالم الإسلامي. فعمد العثمانيون إلى تحريض القبائل والإمارات التابعة لمصر على العصيان، وأعاقوا تجارتها، ومنعوا وصول الرقيق الجركسي وهو ما أضر بالجيش المصري، وآوى المماليك خصوم العثمانيين من الأمراء والسلاطين، كما تقاربوا مع الشاه إسماعيل الصفوي، مما زاد الشقاق، إذ سمح السلطان الغوري بمرور وفد صفوي إلى البندقية للتحالف ضد العثمانيين، فاستغل السلطان سليم الأول ذلك وعدَّ مصر خصمًا له، وبعد أن هزم الصفويين الصفويين، وجَّه أنظاره لمصر، خاصة بعد أن قطعت إمارة الغادرية الموالية لمصر إمداداته، فجهز الغوري جيشًا كبيرًا رغم ضعف الموارد، وخرج بنفسه ومعه كبار رجال الدولة والعلماء، أما سليم فقاد جيشًا يفوق عدده وعدته، ومعه مدافع وبنادق حديثة. والتقى الجيشان في مرج دابق (٩٢٢هـ/ ١٥١٦م) شمالي حلب، وأظهر المصريون في البداية نصرًا على الميمنة والقلب، وكاد سليم يفر، لكن خيانة «خير بك» نائب حلب و«جان بردي الغزالي» نائب حماة قلبت الموازين، فانهار الجيش المصري تحت ضربات المدفعية العثمانية وتخاذل المماليك القدماء. وأصيب الغوري بالفالج ومات في ساحة القتال، وانتهت المعركة بانتصار ساحق للعثمانيين، فسقطت مدن الشام في أيديهم بلا مقاومة. انهزم المصريون وعاد الناجون إلى مصر، وانضم الخونة إلى العثمانيين. واستولى سليم على حلب ودمشق، ونظم شؤون الشام قبل التوجه إلى مصر. وتولى طومان باي الحكم بمصر بعد الغوري. فجمع جيشًا ودافع عن القاهرة بخنادق في الريدانية(٩٢٢هـ/ ١٥١٧م)، لكن العثمانيين التفوا حول المصريين بثلاثة جيوش، فصمد المماليك قليلًا وقتلوا عددًا من القادة العثمانيين، ثم انهزموا تحت قصف المدافع، ودخل العثمانيون القاهرة، لكن طومان باي شن هجومًا مفاجئًا بمساعدة العامة وأوقع خسائر بالعثمانيين، قبل أن يُطرد مرة أخرى ويتحصن بالصليبة، وبعد حصار طويل انهزم وفر إلى الجيزة. وحاول طومان باي الصلح مع سليم على أن يبقى نائبًا له بمصر، لكن المماليك رفضوا، والتقى الجيشان مجددًا قرب «وردان» (ربيع الأول ٩٢٣هـ)، وحقق المصريون تفوقًا أولًا، لكن المدافع العثمانية رجحت الكفة، فانكسر المماليك نهائيًا، وفر طومان باي إلى عرب البحيرة عند حسن بن مرعي الذي خانه وسلمه للعثمانيين، وأبقاه سليم عنده فترة يسأله عن أحوال مصر، فأوهمه بالأمان، ثم أمر بشنقه عند باب زويلة في ٢١ ربيع الأول ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، ليكون السلطان المصري الوحيد الذي أعدم شنقًا. وأقام سليم نحو ٨ أشهر متنقلًا بين بولاق، والقلعة، والجيزة، والروضة، والإسكندرية، فنقل النفائس

والكتب والأعمدة إلى الأستانة، ونفى أبناء السلاطين وكبار العلماء والقضاة إلى القسطنطينية، وأخذ الصناع المهرة (نحو ألف) فأدَّى ذلك إلى تدهور كثير من الصناعات بمصر. وولى «خير بك» على مصر و«جان بردي الغزالي» على الشام. بسقوط طومان باي ودخول السلطان سليم، صارت مصر ولاية عثمانية، وفقدت استقلالها بعد أن كانت زعيمة العالم الإسلامي

الفصل الثاني: نبذة في تاريخ الدولة العثمانية

١_ منشأ العثمانيين ونهوضهم

الأصول والنشأة:

العثمانيون فرع من القبائل التركية المنحدرة من الجنس المغولي، الذي خرج من أواسط آسيا وانتشر غربًا، ومن تلك القبائل «الأغوز» التي هاجرت إلى آسيا الصغرى هربًا من بطش المغول، وكان يرأسها أرطغرل. وعندما ساعد أرطغرل السلاجقة في قتال المغول، كافأه السلطان السلجوقي علاء الدين بمنحه أرضًا قرب «إسكي شهر»، وهناك ولد ابنه عثمان بن أرطغرل (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) الذي أسس الدولة العثمانية. ومع سقوط الدولة السلجوقية (٦٩٩هـ / ١٣٠٠م)، استقلت إمارة عثمان، واندمجت فيها تدريجيًا بقية الإمارات التركية، بدأ عثمان وابنه أرخان بفتح أراضٍ من الدولة البيزنطية، وجعل الأخير مدينة «بروسة» عاصمة للدولة بعد فتحها (٧٢٦هـ / ١٣٢٦م). وتابع أرخان الفتوحات وأسس الجيش الإنكشاري، الذي ضم أبناء النصارى الذين أُخذوا صغارًا، وربيّوا تربية إسلامية وعسكرية صارمة، أصبحوا عماد القوة العثمانية لقرون، لكن فسادهم لاحقًا أدَّى إلى القضاء عليهم في عهد السلطان محمود الثاني (١٨٢٦م)

وبدأ العثمانيون بالتوسع الأوروبي بفتح «غليبولي» (١٣٥٧م). ثم تولى الحكم مراد الأول (٧٦١-٧٩٢هـ / ١٣٥٩-١٣٨٩م) فوسع الدولة في البلقان، وجعل «أدرنة» عاصمة، وانتصر على الصرب والبلغار في معركة «قوصوة» (١٣٨٩م) لكنه قُتل فيها. وجاء بعده بايزيد الأول (١٣٨٩-١٤٠٢م) الذي هزم جيوش أوروبا في «نيقوبوليس» (١٣٩٦م)، وأخضع اليونان، وكان يتهيأ لفتح القسطنطينية لولا أن هزمه تيمورلنك في أنقرة (١٤٠٢م) وأسره حتى وفاته. وبعد اضطرابات داخلية بين أبناء بايزيد، استقرت الدولة بيد محمد الأول (١٤١٣-١٤٢١م)، فأعاد تماسكها، ثم جاء مراد الثاني (١٤٢١-١٤٥١م) الذي واصل الفتوحات، وانتصر على الأوروبيين في معركة «وارنة» (١٤٤٤م). وخلفه ابنه محمد الثاني (الفاتح) (١٤٥١-١٤٨١م)، الذي أعد جيشًا ضخمًا وتمكن سنة ١٤٥٣م من فتح القسطنطينية، منهيًا الدولة البيزنطية ومعلنًا بداية العصر الحديث

٢_ اضمحلال الدولة البيزنطية وسقوط القسطنطينية في يد العثمانيين

نُقلت عاصمة الدولة الرومانية إلى القسطنطينية (٣٣٠م)، وانقسمت الإمبراطورية إلى غربية (سقطت عام ٤٧٦م) وشرقية (البيزنطية) التي استمرت قرونًا رغم غزوات الفرس والعرب والترك. وتعددت أسباب سقوطها، فكان أبرزها الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٤م)، التي استولى

الصليبيون فيها على القسطنطينية، وأسسوا «الدولة اللاتينية» التي استمرت ستين عامًا، خربوا فيها البلاد ونهبوا ثرواتها، وعندما استعاد البيزنطيون المدينة (١٢٦١م)، كانت قد ضعفت وانقسمت، فضلًا عن الهجمات التركية المستمرة: التي انتزعت معظم أراضيها في آسيا والبلقان، وأرهقت سكانها بالغزو والتشريد، والوباء الأسود (١٣٤٧م) الذي اجتاح أوروبا وقضى على نصف سكان بعض المناطق، مما أضعف الدولة، وقلّل قدرتها على حشد الجيوش. وأدَّت محاولات توحيد الكنيستين الشرقية والغربية بإملاء من البابا إلى انقسام حاد داخل الدولة، واندلاع صراعات بين البطارقة والأباطرة. كما شهدت البلاد نزاعات متكررة على العرش منذ القرن الثالث عشر، مما زاد من الفوضى. وبعد الحملة اللاتينية، استقلت شعوب البلقان عن الحكم البيزنطي، وصارت تستعين بالأتراك ضد الإمبراطورية. ومع ضعف السكان بسبب الوباء، لم تعد القسطنطينية قادرة على الصمود أمام القوة العثمانية الصاعدة. وكل هذه العوامل مهدت لفتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية عام (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م)، فسقطت الدولة البيزنطية نهائيًا بعد أن دامت أكثر من ألف عام

وهكذا نشأت الدولة العثمانية من قبيلة تركية صغيرة لتصبح قوة عالمية بفضل التنظيم العسكري والفتوحات المتواصلة، حتى تمكنت بقيادة محمد الفاتح من إسقاط القسطنطينية. وفي المقابل، أدَّى ضعف الدولة البيزنطية نتيجة الغزو الصليبي، والتفكك الداخلي، والوباء، والهجمات التركية المستمرة، إلى سقوطها النهائي، وهو الحدث الذي عُدَّ بداية التاريخ الحديث

٣_ الدولة العثمانية في أوج عظمتها (٨٥٧-٩٧٤هـ / ١٤٥٣-١٥٦٦م)

جلس السلطان محمد الثاني (الفاتح) على العرش عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م، فاتخذ فتح القسطنطينية هدفه الأول، وبعد استعداد عسكري غير مسبوق نجح في اقتحام المدينة بعد حصار عظيم، مستخدمًا المدافع الضخمة وحيلة نقل الأسطول إلى القرن الذهبي. وبمقتله إمبراطور الروم سقطت الدولة البيزنطية، وأصبحت القسطنطينية عاصمة آل عثمان، واتخذت اسم إسلامبول. واستمر الفاتح في الفتوح، فأخضع المورة، والصرب، والبوسنة، وطرابزون، كما توسع في أملاك البندقية، وحاول غزو إيطاليا فأخفق بسبب مقاومة ألبانيا وهزيمته عند بلغراد، فمات سنة ٨٨٦هـ/١٤٨١م بعد أن وصل العثمانيون إلى ذروة مجد جديد، فجاء بعده عهد بايزيد الثاني (٨٨٦-٩١٨هـ/١٤٨١-١٥١٢م) وكان بايزيد ميالًا للسلم، منشغلًا بالصراع مع أخيه جم، فلم يزد في أملاك الدولة إلا قليلًا. لكن البحرية العثمانية تقوّت في عهده وبدأت تهدد سواحل أوروبا، وانتهى حكمه بتنازله لابنه سليم بعد ضغط الإنكشارية، فكان عهد سليم الأول (٩١٨-٩٢٦هـ/١٥١٢-١٥٢٠م) الذي برز كأعظم سلاطين آل عثمان، فهزم الصفويين في الشرق في موقعة جالديران (٩٢٠هـ/١٥١٤م)، وسيطر على ديار بكر وكردستان، وفي الجنوب: فتح الشام ومصر (٩٢٣هـ/١٥١٧م)، وحصل على الشرعية الدينية بتنازل آخر الخلفاء العباسيين عن الخلافة له، فأصبح العثمانيون زعماء العالم الإسلامي. وكان سليم

شديد البأس، لكنه توفي قبل أن يكمل فتوحه، فجاء بعده عصر سليمان القانوني (٩٢٦-٩٧٤هـ/١٥٢٠-١٥٦٦م) الذي يُعد عصره ذروة المجد العثماني، إذ جمع بين قوة الدولة في السياسة والعسكر والبحرية، وبين مكانتها الروحية كزعيمة للعالم الإسلامي، فاستولى على بلغراد (٩٢٧هـ/١٥٢١م)، وفتح رودس (٩٢٨هـ/١٥٢٢م) من فرسان القديس يوحنا، وانتصر على المجر في موقعة موهاكس (٩٣٢هـ/١٥٢٦م)، فقُتل ملكهم لويس الثاني، وأصبحت المجر تابعة للعثمانيين، وحاصر فيينا (٩٣٥هـ/١٥٢٩م) لكنه فشل بسبب الشتاء ونقص المدافع، وانتهت الحروب مع النمسا بتقسيم المجر، ثم خضعت ترنسلفانيا والجزء الأكبر من المجر للعثمانيين مع دفع جزية، ذلك كان في أوروبا. أما في الشرق فقد استولى على العراق وبغداد وأجزاء من أرمينية، وصارت الدولة صاحبة نفوذ واسع من البحر الأدرياتيكي حتى الخليج العربي. وقد ازدهرت البحرية العثمانية وبلغت قوة هائلة بفضل قادة بارزين، منهم: خير الدين بربروس الذي قهر الأساطيل الإسبانية والبندقية، وانتصر في بروزة (٩٤٥هـ/١٥٣٨م). ودراغوت (طرغود) الذي سيطر على المهدية وحقق انتصارات بارزة. وبيالة باشا الذي هزم دوريا في معركة جربة (٩٦٧هـ/١٥٦٠م). كما ظهر الملاحان الكبيران بيري ريس وسيدي علي، ومع ذلك فشل العثمانيون في الاستيلاء على مالطة بعد حصار طويل (٩٧٣هـ/١٥٦٥م)

وهكذا أصبح العثمانيون القوة الأعظم في البحر المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندي. كما ارتبطوا بعلاقات سياسية مع فرنسا ضد إسبانيا، وفرضوا هيمنتهم على معظم أوروبا الشرقية. وبوفاة السلطان سليمان القانوني عام ٩٧٤هـ/١٥٦٦م أثناء حملته الأخيرة على المجر عن عمر ٧٦ سنة، انتهى أزهى عصور الدولة العثمانية، حيث بلغت آنذاك أوسع حدودها وأقوى هيبتها العسكرية والسياسية

٤ _ ابتداء اضمحلال الدولة العثمانية (٩٧٤ _ ١٠٤٩هـ/ ١٥٦٦ _ ١٦٤٠م)

بلغت الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني (سليمان الأكبر) ذروة مجدها، فامتدت سيطرتها من مكة إلى بودا، ومن بغداد إلى الجزائر، وهيمنت على معظم سواحل البحر المتوسط والبحر الأسود والأحمر. لكن بوفاته عام ٩٧٤ هـ بدأ عهد الانحطاط، لعدة أسباب داخلية وخارجية، فكانت أبرز الأسباب الخارجية تتمثل في صعود القوى الأوروبية (روسيا، والمجر، والنمسا، وبولندا) وظهور قواد بارزين فيها. والأسباب الداخلية تنوع شعوب الدولة وصعوبة ضبطها، وفساد الإدارة بعد سليمان، وضعف السلاطين، وانغماسهم في اللهو، وانحلال الإنكشارية الذين استبدوا بالسلطة وتراجع مستواهم الحربي. كما غاب الإصلاح العسكري مقارنة بالدول الأوروبية، فكان سليم الثاني (٩٧٤ _ ٩٨٢هـ): سلطان ضعيف، لقب بالمجنون، مراد الثالث (٩٨٢ _ ١٠٠٣هـ): ضعيف خاضع لنساء القصر، خاصة زوجته صفية ذات الأصل البندقي، فشهد عهده بداية الفوضى الداخلية. ومحمد الثالث (١٠٠٣ _ ١٠١٢هـ) استمر نفوذ والدته صفية. وأحمد الأول (١٠١٢ _ ١٠٢٦هـ): عقد صلحًا مع النمسا

اعترف فيها بالندية، ما أظهر ضعف الدولة. ومراد الرابع (١٠٣٢ _ ١٠٤٩): آخر السلاطين الحربيين، قوي البأس. فرض النظام بالقوة، قضى على تمرد الإنكشارية بقتل الآلاف منهم. وأعاد فتح أريوان (١٦٣٥م) واستعاد بغداد من الصفويين (١٦٣٨م) بعد حملة ناجحة، لكنه توفي شابًا (٢٨ عامًا)، وبموته انتهى عهد القوة العسكرية للسلاطين

٥ _ عهد سلطة الوزراء - أسرة كبريلي (١٠٤٩ _ ١١٠٣هـ/ ١٦٤٠ _ ١٦٩١م)

بعد مراد الرابع تولى السلطان إبراهيم الأول (١٠٤٩ _ ١٠٥٨هـ)، وكان ضعيفًا، فانتشر الفساد وسوء الإدارة، وعجز عن فتح جزيرة كريت، ثم عُزل وقُتل، وخلفه محمد الرابع (١٠٥٨ _ ١٠٩٩هـ) الذي عاصر اضطرابات داخلية وهزائم بحرية، حتى برز دور أسرة كبريلي، فتولى محمد كبريلي (١٠٦٦هـ/ ١٦٥٦م) الصدارة العظمى بشرط الاستقلال التام في الإدارة، وأعاد النظام بحزم شديد وقتل آلاف المفسدين، وحرر الدردنيل، ومهد الطريق لفتح كريت. وواصل أحمد كبريلي (١٠٧٢ _ ١٠٨٧هـ) سياسة أبيه، فقاد حربًا ضد النمسا (١٦٦٣م) وانتهت بصلح فرفار (١٦٦٤م)، ثم استكمل فتح كريت (١٦٦٩م)، ودخل في حرب مع بولندا بسبب القوزاق، وانتزع حصونًا وأراضي، لكنه واجه مقاومة عنيفة من القائد جون سوبيسكي، وعقد صلح زرانو (١٦٧٦م) الذي ثبت مكاسب عثمانية في بادوليا وأوكرانيا، ثم جاء بعدهما قرة مصطفى باشا (١٠٨٧هـ/ ١٦٧٦م): صهر الأسرة، فكان طموحًا لكنه مغرور، فخطط لغزو فيينا (١٦٨٣م) بجيش ضخم، وحاصرها، لكنه توانى في اقتحامها. وتدخل جون سوبيسكي ملك بولندا وأنقذ المدينة، فانكسر الجيش العثماني هزيمة ساحقة، وكانت بداية الانحسار العثماني في أوروبا. وأُعدم قره مصطفى، وجاء بعده مصطفى كبريلي (١٠٩٨ _ ١١٠٣هـ) الذي حاول إصلاح الجيش، وحقق بعض الانتصارات باسترجاع بلغراد (١٦٩٠م)، لكنه هُزم وقُتل في معركة سلانكمن (١٦٩١م)، وهكذا شكلت أسرة كبريلي مرحلة انتعاش نسبي وسط الانحطاط، لكن بعد موت مصطفى كبريلي فقدت الدولة الأمل في استعادة قوتها. وتكوّن الحلف المقدس (النمسا، وبولندا، والبندقية، وروسيا)، فانتزع من العثمانيين المجر وكرواتيا وسلافونيا وترانسلفانيا واليونان وأزمير، وهزم الجيش العثماني بقيادة السلطان مصطفى الثاني في معركة زنتا (١٦٩٧م)، واختُتمت هذه المرحلة بصلح كارلوفيتز (١٦٩٩م) الذي أفقد الدولة العثمانية معظم ممتلكاتها في أوروبا الوسطى، وأكد تراجعها النهائي أمام أوروبا

٦ _ الدولة العثمانية وحروبها مع الروسيا والنمسا في القرن الثامن عشر

شهد القرن الثامن عشر بداية ضعف الدولة العثمانية وظهور ما عرف بالمسألة الشرقية، إذ أخذت دول أوروبا تبحث في مصير أملاكها ومن يكون وارثها بعد أن بدا واضحًا انحطاطها، فكان السبب في هذا الضعف أمرين أساسيين: صعود روسيا القيصرية وتحالفها مع النمسا لطرد الأتراك من أوروبا، ثم اضطراب الإدارة العثمانية وثورات الشعوب الخاضعة لها. وبرز قيصر روسيا بطرس الأكبر في مطلع هذا القرن،

فأدخل إصلاحات واسعة في بلاده جعلتها تواكب الحضارة الأوروبية، وأولى اهتمامًا خاصًا بالوصول إلى البحار، فانتزع أراضي السويد في معاهدة نيستاد، كما انتزع من العثمانيين مدينة آزاق بمعاهدة كرلوتز، غير أن العثمانيين استعادوها بعد حرب بروث سنة ١٧١١م، حين وقع القيصر نفسه على وشك الأسر لولا خيانة القائد العثماني بلطجي باشا، وحاولت الدولة بعد ذلك أن تستعيد نفوذها في المجر والمورة، فنجحت في استرداد المورة، لكنها انهزمت أمام النمساويين، فاضطرت إلى معاهدة بساروتز ١٧١٨م التي أبقت بلغراد وما حولها في يد النمسا. وفي فارس انتهز العثمانيون اضطراب أوضاعها فاستولوا على بعض أقاليمها، ثم عقدوا مع الروس معاهدة ١٧٢٤م لتقسيم النفوذ، لكن بروز نادر شاه أفسد عليهم مكاسبهم وأجبرهم على الجلاء. أما الروس والنمسا فجددا تحالفهما وأخذا يستعدان لمهاجمة الدولة، حتى وقعت حرب ١٧٣٥ _ ١٧٣٩م، وحقق الروس بعض الانتصارات، لكن العثمانيين صمدوا ببسالة، فعقدت معاهدة بلغراد التي أعادت للدولة بلغراد والصرب والبوسنة ومنعت روسيا من دخول البحر الأسود، فكان نصرًا عثمانيًا كبيرًا ساعدت فيه فرنسا خوفًا من توسع روسيا والنمسا. غير أن فترة السلم لم تدم، إذ جاءت كاترين الثانية إلى عرش روسيا سنة ١٧٦٢م، وسعت إلى تنفيذ مشروعها الشرقي، فعملت على التدخل في شؤون بولندا وإثارة شعوب البلقان واليونان ضد الدولة، حتى نشبت حرب ١٧٦٨م. كانت الكفة فيها لروسيا، إذ استولت على ملدافيا والأفلاق والقرم، وهزمت الأسطول العثماني في جشمة، فأجبرت الدولة على عقد معاهدة كوجك قينارجه ١٧٧٤م، التي لم تمنح روسيا أراضي واسعة فحسب، بل منحتها حق حماية المسيحيين العثمانيين والتدخل في شؤون الدولة، وهو امتياز خطير كان أساس تدخلاتها المستمرة في القرون التالية

ثم ضمت روسيا القرم سنة ١٧٨٣م رغم المعاهدات السابقة، واعترفت الدولة بذلك في معاهدة القسطنطينية ١٧٨٤م. وأثار هذا ضغينة العثمانيين، فاندلعت حرب جديدة سنة ١٧٨٧م، شاركت فيها النمسا بداية لكنها انسحبت سريعًا بمعاهدة سستوفا ١٧٩١م، بينما واصل الروس القتال بقيادة سوفاروف وحققوا انتصارات كبيرة، منها سقوط إسماعيل. ولم تنته الحرب إلا بمعاهدة ياش ١٧٩٢م التي أقرت بسيادة روسيا على القرم والأراضي حتى نهر الدنيستر، واعترفت بجميع شروط كوجك قينارجه. وهكذا انتهى القرن الثامن عشر وقد رسخت روسيا نفوذها على البحر الأسود، وأثبتت نفسها قوة عظمى في أوروبا، بينما واصلت الدولة العثمانية فقدان أراضيها ومكانتها شيئًا فشيئًا. وكان هذا القرن إيذانًا بمرحلة جديدة من الضعف العثماني، حيث غدت الدولة في نظر أوروبا "الرجل المريض"، وصارت المسألة الشرقية محور السياسة الدولية في القرون التالية

الفصل الثالث: حكم العثمانيين في مصر (٩٢٣ _ ١٢١٣هـ/ ١٥١٧ _ ١٧٩٨م)

باستيلاء السلطان سليم على مصر في سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م أصبحت مصر جزءًا من

أملاك الدولة العثمانية، ودخلت في طور طويل دام نحو ثلاثة قرون لم يكن لها فيه شأن سياسي يُذكر، حيث عاشت البلاد معظم ذلك العصر في حالة فتنة مستمرة بين المماليك أنفسهم، وبينهم وبين الولاة العثمانيين، وبين الجيش العثماني. ورغم كثرة الحوادث، لم يكن لها أثر دائم على تاريخ مصر، لذا نركز على وصف حالة البلاد بشكل عام

١_ نظام الحكومة

بعد فتح مصر، وضع السلطان سليم نظامًا لإدارة البلاد يضمن بقاءها خاضعة للدولة، من خلال ثلاث سلطات متنافسة

أ _ الوالي: كان مسؤولًا عن تنفيذ أوامر السلطان ومراقبة أعمال الحكومة

ب _ جيش الحامية: شكله السلطان سليم من ست فرق بقيادة ضباط مقيمين بالقلعة، وأسند إلى مجلس ديوان الحق في رفض مشاريع الوالي إذا لم ير فيها مصلحة

ت _ المماليك: عين كل بيك منهم على سنجق من المديريات الأربع والعشرين، تعرف هذه المديريات بالسناجق

وأضاف السلطان سليمان القانوني مجلسين: «الديوان الأكبر» للشئون الخطيرة و«الديوان الأصغر» للشئون اليومية، وزاد فرقة سابعة للجيش تضم المماليك العتقاء، فبلغت قوة الجيش نحو ١٢,٠٠٠ رجل. كان الهدف من هذه السياسة ضمان خضوع مصر للدولة دون مراعاة مصالحها

٢_ الضرائب

فرض العثمانيون على مصر خراجًا سنويًا يسمى «الميري» يجمع من ضرائب الأراضي ويُرسل للسلطان، وكان لكل ملتزم الحق في جمع خراج منطقته مقابل إعفاء أرضه من الضرائب وزراعة الفلاحين لها مجانًا، وإلى جانب الضرائب الرسمية، كان المماليك يفرضون على الأهالي ضرائب إضافية، ما أدى إلى تفاقم الفقر بين الفلاحين حتى نهاية القرن الثاني عشر الهجري. وأدخل العثمانيون عدة ألقاب لمصر مثل «باشا» للولاة، و«أغا» لقائد الجيش، و«كتخدا» لوكيل الباشا، و«بيك» و«أفندي» بمعانٍ محددة

٣_ المباني

لم تعد مصر، بعد الفتح العثماني، تتمتع بالثروة الضخمة التي كانت عليها، فتراجع إنشاء المباني الفاخرة والزخرفة مقارنة بالعصور السابقة، مع بقاء بعض الأوقاف الدينية دون مساس. وظهرت المباني التركية البارزة في هذا العصر، خصوصًا في الجوامع التي اعتمدت على القباب بدل الأسقف المستوية، ومن أبرزها: جامع سليمان باشا بالقاهرة (٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م)، وجامع سنان باشا ببولاق (٩٧٩هـ/ ١٥٧١م)، وجامع الملكة صفية بالداودية (١٠١٩هـ/ ١٦١٠م)

وبرز المماليك، خاصة عبد الرحمن كتخدا، في إنشاء وتجديد الجوامع والسبل والقناطر، كما اهتموا بالأزهر وتشجيع طلبة العلم، وعلى الرغم من تراجع الإمكانات المالية، حافظ العثمانيون على المباني العربية وأجروا ترقيعات وتحسينات، وإن لم تصل إلى مستوى روعة المماليك. وقد أدَّى النمط الأوروبي لاحقًا إلى هدم بعض المباني لإقامة شوارع وميادين جديدة، كما في شارع محمد علي

٤_ المماليك وأهل البلاد

لم يمتزج المماليك بالسكان الأصليين، وكان

معظمهم يتركز على الحروب والفروسية، ونادرًا ما كونوا أسرًا، وفي أواخر العصر العثماني، كثرت مظاهر الترف والابتزاز المالي للمماليك، فيما ظل المصريون الأصليون تحت وطأة الضرائب والأعباء المتعددة، مع انتشار الفقر وانعدام الأمن وتراجع الصناعات والزراعة

رغم ذلك، بقي بعض النشاط الصناعي كصناعة السكر والحرير والزجاج في بعض المناطق. أما الثروة المتجمعة لدى كبار المماليك والتجار، فقد كانت تصرف غالبًا على الصدقات ومساعدة الفقراء، كما كانوا يهتمون بالعلم والكتب، فتوافد العلماء وطلبة العلم على بيوتهم واستفادوا من مكتباتها، وإن كان اهتمامهم محدودًا بالعلوم النظرية دون الانفتاح على النهضة العلمية الأوروبية

٥ _ تجارة مصر وشواطئ البحر الأبيض، وتأثرها بالاستكشافات البرتقالية في أفريقيـ

كانت ثروة سلاطين المماليك البحرية والبرجية عظيمة، ناتجة عن موارد متعددة، أهمها الضرائب على التجارة الهندية العابرة إلى أوروبا، التي كانت تمرُّ عبر البحر المتوسط إلى إسكندرية والبندقية، وقد أدَّى مرور التجارة عبر أراضي المماليك إلى فرض مكوس مرتفعة على البضائع، بما يوازي سدس قيمتها عند الدخول وسدس آخر عند الخروج، فضلًا عما يُدفع من هدايا ورشاوى. مثلًا، إذا بلغت قيمة البضاعة الهندية ١٠٠٠٠ جنيه عند شرائها، فقد تدفع مكوسًا تصل إلى ٨٠٠٠ جنيه خلال انتقالها، ما يعكس ثراء المماليك وتمكينهم من بناء قصور ومبانٍ شاهقة

احتكار تجارة الهند عبر مصر والشام أدى إلى ثروة هائلة لتجار البندقية، ما دفع الدول الأوروبية للبحث عن طرق بحرية جديدة إلى الهند. والبرتقال، سكان غرب شبه جزيرة الأندلس، كانوا أول من اهتم بذلك، فأسس الأمير هنري «الملاح» مدرسة بحرية ومراصد في سجر لتعليم الملاحة وتطوير السفن، مستخدمًا البوصلة وآلة الأسطرلاب لتعقب الشواطئ الأفريقية الغربية. وتوالى إرسال بعثات بحرية حتى وصلوا بجنوب أفريقيا إلى رأس الزوابع وخليج الجوا، ثم أعادوا التركيز على طرق الهند عبر شرق أفريقيا. بعد ذلك، أبحر خرستوف كولومبوس غربًا، ظنًا منه أنه يصل للهند، فالتقى بجزر الهند الغربية، وأدَّى اكتشافه إلى توقف الاستكشاف البرتقالي مؤقتًا، ثم استؤنفت الرحلات بعد ذلك بقيادة فاسكو دي جاما الذي وصل إلى الهند بعد عبور رأس الزوابع وتلقى المساعدة من دليل هندي، وأبرم معاهدة تجارية مع ملك قليقوت، ما فتحت الطريق لتغيير جذري في التجارة العالمية، حيث انتقلت التجارة من البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسي حول أفريقيا، مؤثرًا على ثروة مصر والبندقية والمماليك. وحاول السلطان الغوري بمساعدة البنادقة مواجهة البرتقال، فأنشأ أسطولًا للبحر الأحمر والهندي، لكنه هزم في معارك بحرية حاسمة، ولم تتمكن مصر بعد الانضمام للدولة العثمانية من استعادة موقعها في التجارة الهندية، وأسهمت غفلة العثمانيين عن دعم البنادقة في تراجع

نفوذهم التجاري

٦ _أشهر الولاة وأهم الحوادث

أول الولاة العثمانيين كان خير بك، تولى بعد فتح مصر والشام، وقرب منه اليهود والنصارى، لكنه لم ينل محبة عامة المسلمين، وعُرف بمساعدته للفقراء وإطلاق السجناء قبل وفاته. خلفه مصطفى باشا، زوج أخت السلطان سليمان القانوني، وهو أول من لقب بـ»باشا» ولم يعرف العربية، ثم ظهر أحمد باشا الذي حاول الاستقلال بسلطة مصر، فقُبض عليه وأُرسل رأسه للقسطنطينية، وتميز القرن الأول والثاني بعد الفتح بسلسلة ولاة لم يشهد التاريخ فيها أحداثًا كبيرة، منهم من أنشأ مساجد ومدارس، ومنهم من ركز على جمع المال، ومن أبرز هؤلاء الولاة سليمان باشا (٩٣١هـ / ١٥٢٥م)، الذي رتب الضرائب، وعمل على الإصلاحات، وأنشأ أسطولًا للبحر الأحمر لكبح البرتقال، لكنه لم ينجح في مواجهة أساطيلهم، وجاء بعده خُسْرو باشا أكمل الإصلاحات وزاد الضرائب، ثم جاء سنان باشا (٩٧٥هـ / ١٥٦٧م) الذي فتح اليمن وشيد المباني العامة، وعاد محبوبا من الناس. تلا سنان باشا مسيح باشا (٩٨٢-٩٨٨هـ / ١٥٧٤-١٥٨٠م) الذي اشتهر بالعفة والعدل، وشيد المدارس والأوقاف. ومع مرور الزمن، بدأ نفوذ الولاة يضعف أمام قوة الجنود، ومن أمثلة ذلك أويس باشا (٩٩٥-٩٩٩هـ / ١٥٨٧-١٥٩١م) الذي اضطر للرضوخ لمطالب الجنود. ونجح قرة مصطفى باشا (١٠٣٢هـ / ١٦٢٢م)، في ضبط الأسواق ومراقبة الشكاوى، لكنه عزل لاحقًا وعاد بعد تدخل السلطان، وشهدت هذه الفترة أوبئة متعددة وطواعين ومجاعات، أبرزها طاعون ١٠١٢هـ (١٦٠٣م) و١٠٢٨هـ (١٦١٩م) و١٠٣٠هـ (١٦٢١م) و١٠٥٢هـ (١٦٤٢م)، ما أدَّى لخسائر بشرية ومادية هائلة. ومع هذه الظروف، سيطر الجنود على السلطة، وأصبحوا هم الناهين للولاة، واحتكروا حماية التجار والمزارعين والملاحين، وهو ما أدَّى إلى انحدار النفوذ العثماني تدريجيًا، وسيطرة البيكوات المماليك على معظم البلاد

٦ _ ١ _ عودة النفوذ إلى المماليك البيكوات

أدَّى تنقل الولاة العثمانيين المتكرر إلى ضعف نفوذهم في مصر، ما أتاح للمماليك الراسخة قدمهم استرجاع جزء كبير من قوتهم السابقة، وساعد طول أمد النزاع بين الولاة والجند على نمو هذه القوة، إذ انشغلت الطائفتان بمشاحناتهما عن الأمور العامة. ولعب اختيار المماليك زعيمًا من بينهم، المسمى حينها «شيخ البلد»، دورًا رئيسًا في توطيد سلطتهم، إذ اعتمدوا على نظام تدريب المماليك الأحداث ليصبحوا لاحقًا أنصارًا مخلصين للبيكوات، واستطاعوا من خلال هذه القوة، التأثير على الولاة وعزل من أرادوا، بل طمعوا في التخلص من السيادة العثمانية، خصوصًا مع انشغال الدولة بحروبها مع النمسا وروسيا، وقد حاول بعض الولاة تفريق المماليك عبر الدسائس بين أحزابهم، وكانت أعظم هذه الأحزاب «القاسمية» و«الفقارية»، فتفاقمت العداوة بينهما، حتى اندلعت حرب دامت ثمانين يومًا في سنة ١١١٩هـ/ ١٧٠٧م. انتهت الفتنة بمقتل شيخ البلد

قاسم بك إيواظ وتولي ابنه إسماعيل بك توحيد المماليك، لكن الوالي دس المؤامرات ليقتل إسماعيل بك، وجرى تعيين جركس بك مكانه. واستمر التنافس على السلطة بين المماليك، حتى برز عثمان بك، الذي امتاز بالقوة والشجاعة، فاستقر حكمه وذاع صيته بين الناس، إلا أنه اضطر للفرار بعد صراع مع حزبين من المماليك «الكردغلية» و«الجلفية» اللذين تناوبا على السلطة، ولم تهدأ البلاد، وظل التنازع سيد الموقف حتى تولَّى علي بك الكبير زمام الأمور، فاستطاع بتدريب المماليك وكسب البيكوات تعزيز سلطته، وأعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية سنة ١١٨٣هـ/ ١٧٦٩م، مستغلًا انشغال الدولة بحربها مع روسيا. وسعى علي بك لتوسيع نفوذه خارج مصر، فاستولى على جدة وأجزاء من الجزيرة العربية، كما حاول فتح الشام، لكنه اصطدم بخيانة من حليفه أبو الذهب، الذي تمكن من استعادة السيطرة على البلاد بالاستعانة بالباب العالي، فيما انتهى علي بك بالقبض عليه ومماته بالقاهرة، بعد ذلك تولى زمام الأمور «إبراهيم بك» و«مراد بك» بالتناوب، واستمر نفوذهم في البلاد إلى غزو الفرنسيين سنة ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م، مع فترات عودة للنفوذ العثماني بين ١٧٨٦ و١٧٩٠م، إذ أرسلت الدولة حملة لطرد الفتن واستعادة السيطرة، لكنها لم توقف نهج المماليك في الحكم والابتزاز، ما أسهم لاحقًا في لفت نظر الدول الأوروبية إلى مصر، وكان ذلك من العوامل التي مهّدت للغزو الفرنسي

الباب الثاني: تاريخ مصر من الحملة الفرنسية إلى انتهاء عهد محمد علي

الفصل الأول: الحملة الفرنسية على مصر (١٢١٢ _ ١٢١٦هـ/ ١٧٩٨ _ ١٨٠١م)

تُعدُّ الحملة الفرنسية على مصر بداية مرحلة جديدة في تاريخها الحديث، فبعد نحو ثلاثة قرون من الحكم العثماني الذي شارك المماليك في إدارته، عانت البلاد خلالها من الظلم وسوء الإدارة وتراجع التجارة والعزلة عن أوروبا، جاء الفرنسيون بقيادة نابليون بونابرت ليكسروا هذه العزلة، فبرز نابليون بوصفه قائدًا عسكريًّا عظيمًا في أواخر القرن الثامن عشر، وتمكن من بسط نفوذ فرنسا في أوروبا، ثم اتجهت أنظاره إلى مصر بوصفها مفتاح الشرق وممرًا أساسيًا إلى الهند التي كانت هدفًا استراتيجيًا لضرب النفوذ البريطاني. ولم يكن قرار غزو مصر وليد اللحظة، فقد سبق أن طرح المفكرون الفرنسيون هذه الفكرة من قبل، لكن نابليون هو من نفذها بعد دراسة عميقة واستشارة العلماء، فأراد أن يجعل من مصر قاعدة لفرنسا في الشرق، ومصدرًا غنيًا بالخيرات، وقد اصطحب معه نخبة من العلماء والفنيين ومطبعة عربية، حرصًا على الجمع بين القوة العسكرية والمعرفة العلمية، وفي مايو ١٧٩٨م تحرك الأسطول الفرنسي من طولون متجهًا إلى مصر، وبعد أن استولى على مالطة واصل طريقه إلى الإسكندرية، وحاول الإنجليز بقيادة نلسن اعتراضه، لكنهم لم يدركوا وجهته إلا بعد فوات الأوان

وصل الفرنسيون إلى شواطئ الإسكندرية

في يوليو ١٧٩٨م، وتمكنوا سريعًا من اقتحام المدينة رغم مقاومة حاكمها محمد كريم والأهالي، الذين أبدوا شجاعة، لكنهم لم يملكوا العدة العسكرية لمواجهة الجيوش الحديثة، وأراد نابليون منذ البداية أن يكسب ثقة المصريين، فوجَّه إليهم منشورًا حاول فيه استمالتهم بالحديث عن احترام الإسلام والقرآن، وادَّعى أنَّه جاء لتخليصهم من ظلم المماليك، غير أن أفعاله من مصادرة السلاح وفرض الشارات الفرنسية ليحملوها على صدورهم، قلَّلت من مصداقية وعوده. وبعد استقرار نابليون في الإسكندرية بدأ زحفه إلى القاهرة عبر دمنهور والرحمانية، حيث واجه قوات مراد بك المملوكي، ثم التقى الجيشان في شبراخيت حيث هُزِم المماليك، ليتقهقروا إلى القاهرة، ولم تكد تمرُّ أيام حتى وقعت معركة الأهرام الشهيرة عند إمبابة في يوليو ١٧٩٨م، وقد اعتمد نابليون على تكتيكاته العسكرية الحديثة المتمثلة في تشكيل المربعات المدعمة بالمدافع، فكانت الغلبة له في معركة استغرقت أقل من ساعة، بينما انسحب مراد بك إلى الصعيد وفر إبراهيم بك إلى الشام، وانفتح الطريق أمام الفرنسيين لدخول القاهرة. دخل نابليون العاصمة بعد أن هجرها كثير من أهلها مع المماليك، وأعلن أنه جاء صديقًا للشعب والسلطان العثماني، وأنشأ ديوانًا يضم العلماء والمشايخ والأعيان لاستشارتهم في شؤون الحكم، وشرع في تنفيذ إصلاحات إدارية وصحية وأمنية على النمط الأوروبي، مثل تنظيم النظافة والإضاءة وتسجيل المواليد والوفيات، غير أن هذه الإجراءات عُدّت تدخلًا في خصوصيات الناس وقيودًا على حريتهم، فأثارت سخطهم. كما أن مصادرة أملاك المماليك والتضييق على نسائهم، وهدم بعض المساجد والتحصينات، زاد من استياء الأهالي وعلمائهم. وبينما كان نابليون يعمل على تثبيت سلطته في القاهرة، تلقى نبأ الكارثة البحرية التي لحقت بأسطوله في خليج «بوقير»، حيث ألحق نلسن بالفرنسيين هزيمة ساحقة قضت على معظم سفنهم وقطعت صلتهم بفرنسا، ورغم صلابة نابليون النفسية، كان لهذا الحدث أثر بالغ على معنويات الجيش والمصريين على السواء، ومع استمرار الضرائب الباهظة والتجاوزات الفرنسية، اندلعت ثورة القاهرة الكبرى في أكتوبر ١٧٩٨م التي أظهر الأهالي فيها شجاعة نادرة، فقتلوا عددًا من الجنود الفرنسيين، وأقاموا المتاريس في الأزقة، لكن المدافع الحديثة رجحت كفة الفرنسيين، فقمعت الثورة بعنف، وراح ضحيتها آلاف من الأبرياء. وبعد أن أخمد نابليون ثورة القاهرة الأولى بدهائه العسكري حين نصب المدافع على التلال المشرفة وأمطر حي الأزهر بالقذائف، دخل الفرنسيون المدينة وارتكبوا ما أثار حفيظة المصريين، إذ دنّسوا الجامع الأزهر، جعلوه إسطبلًا لخيولهم، وحطموا قناديله، ومع استياء الناس وتوسّلات المشايخ، قَبِلَ نابليون مضطرًا بإخلاء الجامع بعد تهديد وتحذير، ثم قلّل من دور المشايخ في الديوان، مكتفيًا بجعلهم وسطاء في نشر منشوراته الداعية إلى السكينة والخضوع. واتَّجه نابليون بعد استقرار الأوضاع الداخلية إلى تحصين مصر تحسبًا لهجوم عثماني، وكان العثمانيون قد عقدوا حلفًا مع إنجلترا وروسيا لاستعادة

البلاد، وخططوا لغزو مزدوج من الشام ورودس، إلا أنَّ سوء التنسيق وعدم وصول الجيشين بوقت واحد إلى الوجهة المحددة مكّن نابليون من مواجهة كل جيش على حدة، فسار إلى الشام، فاستولى على العريش وغزة، ثم يافا التي ارتكب فيها مجزرة رهيبة بقتل الأسرى جميعًا، في وصمة لا تغتفر لتاريخه، وعندما حاصر عكا اصطدم بحسن دفاع أحمد باشا الجزَّار وبمساندة الأسطول الإنجليزي بقيادة سدني سمث، فعجز عن اقتحامها واضطر إلى التراجع بعد حصار دام خمسين يومًا، وعاد إلى مصر ليقابل نزول قوات عثمانية في بوقير، فانتصر عليها، لكن فشل مشروعه في الشرق وضياع أسطوله وانقطاعه عن فرنسا، فضلًا عن تجدد الحرب في أوروبا وخسارة الفرنسيين لإيطاليا، فدفعه ذلك إلى اتخاذ قرار العودة سرًّا إلى بلاده في أغسطس ١٧٩٩م، تاركًا قيادة الجيش لكليبر، الذي وجد نفسه مع جيش منهك وخزينة فارغة وسخط عام، فحاول الخروج من المأزق بعقد صلح العريش مع العثمانيين والإنجليز، الذي نصَّ على جلاء الفرنسيين بسلام، لكن إنجلترا رفضت الاتفاق وفرضت شروطًا قاسية، فانقطعت المفاوضات، ثم اصطدم كليبر بالجيش العثماني، فألحق به هزيمة ساحقة في عين شمس، وأعاد نفوذ الفرنسيين إلى القاهرة بعد قمع ثورة جديدة أشعلها الأهالي وبعض المشايخ، وفرض على أهلها غرامة باهظة، غير أن اغتياله على يد سليمان الحلبي في يونيو ١٨٠٠م أنهى مسيرته، فآلت القيادة إلى الجنرال مينو، الذي اعتنق الإسلام وتزوج مصرية، لكنه كان أضعف كفاءة من سابقيه. وواصل الإنجليز والأتراك الضغط حتى أنزلوا قواتهم في بوقير مطلع ١٨٠١م، واشتد القتال عند كانوب حيث قُتِل القائد الإنجليزي أبركرومبي، لكن النصر كان حليفهم. فحوصرت القوات الفرنسية في القاهرة والإسكندرية، واضطرت إلى التسليم تباعًا والجلاء عن مصر في سبتمبر ١٨٠١م، بعد ثلاث سنوات تركت فيها البلاد مثقلة بالجراح لكنها أيضًا مفتوحة على آفاق جديدة، إذ كان إلى جانب الاحتلال العسكري للحملة وجه آخر تمثل في البعثة العلمية التي ضمت نخبة من علماء فرنسا، الذين انكبوا على دراسة مصر دراسة شاملة، فمسحوا أرضها ورسموا خرائطها، وحصوا أمراضها وطرق علاجها، درسوا نظام الري وأحوال الزراعة والصناعة والتجارة، وتعمقوا في دراسة آثارها القديمة، وكان اكتشاف حجر رشيد أعظم ما أنجزوه، إذ مهد لفك رموز الكتابة المصرية القديمة، وقد توّجت أعمالهم في المؤلف الضخم «وصف مصر» الذي أضاء أمام أوروبا والعالم صورة شاملة عن البلاد. وهكذا انتهت الحملة الفرنسية التي لم تحقق أهداف نابليون في الشرق ولا أطماع فرنسا في الهند، لكنها أحدثت تحولًا عميقًا في مصر، إذ أيقظت الوعي القومي، ووضعت المصريين لأول مرة في مواجهة مباشرة مع أوروبا الحديثة، وأطلقت شرارة التغيرات التي مهدت لدخول مصر عصرًا جديدًا في مطلع القرن التاسع عشر، وإن كانت هذه الحملة قد وضعت مصر في قلب الصراع الدولي بين فرنسا وبريطانيا، إلا أنَّها فتحت عيون المصريين على عالم جديد من القوة والعلم والتنظيم، وإن كان ثمنها باهظًا من

الدماء والدمار، وبرغم أن الفرنسيين لم يلبثوا في مصر سوى ثلاث سنوات، فإن أثر حملتهم ظل عميقًا، إذ شكّلت بداية لاحتكاك مباشر مع أوروبا الحديثة، وكان لها ما بعدها في رسم ملامح مصر السياسية والاجتماعية في العصر الحديث

الفصل الثاني: محمد علي باشا

١_ نشأته ونهوضه

وُلِدَ محمد علي باشا سنة (١١٨٣هـ/١٧٦٩م) في بلدة «قَوَلَة» بالبلقان من أسرة ألبانية بسيطة، وتوفي والده في صغره، فتولّى رعايته أقارب وأصدقاء أبيه حتى شبّ، وتعلم الفروسية واستعمال السيف، زُوِّج من قريبةٍ له ميسورةٍ ساعدته في تجارته بالدخان، حيث ارتبط بتاجر فرنسي يُدعى «ليون»، فاكتسب منه خبرات وعادات أوروبية أثرت في شخصيته، وخدم حاكم قَوَلَة فأظهر براعة في جباية الأموال، ثم اتّجه إلى التجارة، لكنه لم يحقق أرباحًا كبيرة، فقضى ثلاثين سنة من حياته في مسقط رأسه دون شهرة تُذكر، وقد كانت الدولة العثمانية في زمن شبابه ضعيفةً، مفككة العرى، يسيطر على سلطانها الإنكشارية والوزراء، وتكثر فيها الفتن والقلاقل، ومع هذا ظل المسلمون يجلون السلطان بوصفه خليفة، وفي هذا المناخ تفتحت شخصية محمد علي، الذي لم يتجاوز الثلاثين حين اندلعت الحملة الفرنسية على مصر، فدخل طورًا جديدًا من حياته، إذ شارك في سنة (١٢١٣هـ/١٧٩٩م) مع فرقة ألبانية متطوعة أرسلها حاكم قَوَلَة إلى مصر لمحاربة الفرنسيين، ورافقها بصفته وكيلًا عليها، وشهد هزيمة الأسطول العثماني أمام الفرنسيين في «بوقير» وكاد يغرق لولا إنقاذه، فعاد إلى موطنه، ثم رجع ثانية إلى مصر مع الحملة العثمانية - الإنجليزية التي طردت الفرنسيين سنة (١٨٠١م)، وأبلى بلاءً حسنًا في حصار الرحمانية فارتقى إلى رتبة قائد، ومنذ ذلك الحين استقر في مصر، وبدأ مسيرته نحو الولاية

١ _ ١ نهوض محمد علي

بعد رحيل الفرنسيين عاد المماليك لمحاولة استعادة السلطة، بينما أراد الباب العالي بسط نفوذه المباشر، فأتاح الصراع بين الفريقين الفرصة لصعود محمد علي، ففي البداية حاول الوالي العثماني خسرو باشا القضاء على المماليك، لكن جيشه انهزم، وحاول الانتقام من محمد علي متهمًا إياه بالتقصير، ومنذ ذلك الوقت بدأت العداوة بينهما، ثم ثارت الجنود لعدم دفع رواتبهم، فهرب خسرو إلى دمياط، وتوَّلى طاهر باشا قيادة الحكم في القاهرة، لكنه قُتل سريعًا، فبرز محمد علي قائدًا للألبانيين ومحبوبًا من العلماء والعامة، وتحالف مع عثمان بك البرديسي ضد المماليك، وتمكنا من طرد خسرو، ثم تولى علي باشا الجزائري ولاية مصر، لكنه قُتل بتحريض من البرديسي. وفي الوقت ذاته عاد محمد بك الألفي من إنجلترا يسعى لإعادة قوة المماليك بدعم بريطاني، لكن محمد علي والبرديسي اتحدا ضده، ففشلت مساعيه وفرّ إلى الشام

واتسمت سياسة محمد علي بالدهاء؛ فقد جعل البرديسي واجهة في مواجهة السلطان والمماليك، بينما حافظ هو على علاقته بالعلماء والعامة، وعندما أثقلت الضرائب التي فرضها البرديسي كاهل الناس، انقلب محمد علي عليه، وحاصره حتى فرّ مع

إبراهيم بك الكبير، وبذلك انفرد محمد علي بالسلطة في القاهرة سنة (١٢١٨هـ/١٨٠٤م)، ومع ذلك كان مركزه لا يزال غير مستقر؛ فالمماليك قد يتحدون ضده، وجيشه محدود العدد، كما أن الباب العالي قد يُعدُّه خارجيًا، فحاول استرضاء الدولة بإطلاق سراح خسرو، ثم قبل بقدوم والي جديد هو أحمد خورشيد باشا، إلا أنَّ خورشيد أظهر ضعفًا، وفشلت سياساته في ضبط الجنود، واتخذ محمد علي موقف الحامي للأهالي، فكسب ثقتهم

وعندما عاث الجنود «الدلاة» فسادًا في البلاد، لجأ الأهالي والعلماء إلى محمد علي ليحميهم، فحاصر خورشيد في القلعة، واستطاع بدعم العلماء وقيادة عمر مكرم والشيخ الشرقاوي أن يُنصَّب واليًا على مصر في (صفر ١٢٢٠هـ/مايو ١٨٠٥م)، واعترف الباب العالي بتوليه المنصب رسميًا بعد إدراكه أنَّ الأهالي قد اختاروه بإجماع، وهكذا بدأ حكمه لمصر

١ _ ٢ توطيد سلطة محمد علي في مصر

بعد تولي محمد علي الحكم سنة ١٨٠٥م كانت سلطته هشَّةً، إذ لم يرضَ الباب العالي باختياره واليًا واعترف به مرغمًا بسبب إجماع الأهالي عليه، فكان يتربص به، كما أن المماليك الذين أصابتهم نكبات متلاحقة اتَّحدوا ضده، وازدادت الأخطار بقدوم حملة إنجليزية سنة ١٨٠٧م هدفت إلى إعادة المماليك للحكم، لكن الحظ ساعد محمد علي؛ إذ نجح في استرضاء السلطان، والتغلب على المماليك، وهزيمة الإنجليز بمعونة الأهالي وحامية رشيد، فكانت أولى خطواته مكيدة لزعماء المماليك في القاهرة (١٨٠٥م) حيث قُتِل معظمهم، ولتأمين المال، فرض على أقباط القاهرة دفع ما اختلسوه من الأموال، فاستطاع دفع رواتب الجنود وإرضاء أمير البحر التركي، ومع عودة الأسطول العثماني إلى إسطنبول بعد اندلاع الحرب مع روسيا، ثُبِّت محمد علي واليًا رسميًا على مصر سنة ١٨٠٦م، وضعف المماليك بوفاة زعمائهم البرديسي والألفي (١٨٠٦-١٨٠٧م)، وتفرق أنصارهم، وعندما غزت إنجلترا مصر سنة ١٨٠٧م، احتلت الإسكندرية لكنها انهزمت عند رشيد والحماد، فانسحبت تمامًا، وقد رفع هذا النصر مكانة محمد علي لدى السلطان الذي منحه الخلعة وسيف الشرف وأعاد إليه ابنه إبراهيم، فازداد مركزه ثباتًا

١ _ ٣ القضاء على المماليك

كُلِّف محمد علي من الباب العالي بإخضاع الوهابيين، لكنه رأى ضرورة القضاء أولًا على خطر المماليك الذين كانوا يتربصون به، وبعد محاولات صلح فاشلة، ووقائع متفرقة، قرر التخلص منهم نهائيًا، وفي مذبحة القلعة (مارس ١٨١١م) دعا زعماء المماليك لاحتفال رسمي، ثم أغلق عليهم باب العزب، ففتك جنوده بهم حتى قُتل نحو خمسمائة، وأُتبعت العملية بقتل المماليك في الأقاليم حتى زاد عدد ضحاياهم على الألف، وهكذا انتهى وجود هذه الطائفة التي حكمت مصر قرونًا وأرهقت أهلها

٢_ الحروب الوهابية في بلاد العرب

الوهابية حركة إصلاحية ظهرت بنجد مع الشيخ محمد بن عبدالوهاب (١٦٩٦-١٧٨٧م)، دعت إلى التوحيد ونبذ البدع وزيارة القبور والتوسل بالأولياء، وشددت

على محاربة الفسق والمسكرات والترف، وتحالف ابن عبدالوهاب مع محمد بن سعود فامتد نفوذهم في نجد، ثم واصل ابنه عبدالعزيز وابنه سعود الثاني نشر الدعوة، حتى سيطروا على معظم جزيرة العرب، واحتلوا مكة والمدينة، وهاجموا كربلاء سنة ١٨٠١م، وبلغت دولتهم أوجها في عهد سعود الثاني الذي شدد في الضرائب ومنع كثيرًا من المظاهر الاجتماعية، مما دفع الباب العالي إلى تكليف محمد علي بالقضاء عليهم

٢ _١ حملة محمد علي على الوهابيين

أرسل محمد علي ابنه طوسون على رأس جيش قوامه ٨٠٠٠ من الألبانيين عبر البحر الأحمر، فنزل ينبع ثم المدينة، لكنه تكبد هزيمة كبيرة عند «الجديدة». ومع وصول الإمدادات تمكن من دخول المدينة ومكة، لكن الوهابيين ردوا بهزيمة أخرى عند «طُرَبة»، فانتقل محمد علي بنفسه إلى الحجاز سنة ١٨١٣م، وأدَّى الحج، ثم قبض على الشريف غالب وأرسله إلى إسطنبول، وبعد وفاة سعود الثاني سنة ١٨١٤م خلفه ابنه عبدالله الذي افتقر إلى حنكة أبيه، فحاول الالتزام بوصية والده بالتحصن في المواقع الصعبة، لكنه خالفها فانهزم أمام الجيش المصري بقيادة محمد علي، واضطر محمد علي إلى العودة لمصر بسبب اضطرابات داخلية، وتولى ابنه إبراهيم باشا القيادة، فوصل إلى الحجاز سنة ١٨١٦م، وأثبت مهارة عسكرية فائقة، فهزم القبائل تدريجيًا وحاصر الدرعية عاصمة الوهابيين سنة ١٨١٨م، وبعد مقاومة طويلة استسلم عبدالله بن سعود، فأرسله محمد علي إلى الباب العالي حيث أُعدم، وخُرّبت الدرعية تمامًا، وبذلك انتهت دولة الوهابيين الأولى، واستعاد العثمانيون بفضل محمد علي السيطرة على الحجاز والحرمين، مما عزز مكانة الباشا في مصر ووطد حكمه

٣ _ فتح السودان

اتَّجه محمد علي _ بعد انتصاره على الوهابيين _ إلى فتح السودان لأسباب سياسية ومادية، فمن الناحية السياسية أراد التخلص من بقايا المماليك الذين لجؤوا إلى دنقلة، واستبدال جنوده الألبانيين – الذين تمردوا عليه – بجنود من السودانيين المعروفين بالشجاعة. ومن الناحية المادية، كان يطمح إلى إنعاش التجارة عبر القوافل بين مصر والسودان، والاستفادة من الضرائب، والتنقيب عن الذهب، فضلًا عن ضمان السيطرة على منابع النيل لتأمين الري في مصر. وبدأ بفتح واحة سيوة سنة ١٨٢٠م، ثم أرسل جيشًا بقيادة ابنه إسماعيل باشا، مكوّنًا من المشاة والفرسان والمدفعية، فانطلق من أسوان متجهًا إلى دنقلة حيث تفرّق المماليك، واستسلم بعضهم، وتوالت انتصاراته، فدخل بربر، ثم شندي، ثم سنار التي سلّمها سلطانها بعد نزاع داخلي، واعترف بسيادة محمد علي. وأرسل إسماعيل دفعات من العبيد إلى أسوان لتدريبهم على النظم العسكرية الحديثة، لكن الجيش عانى من الأمراض وقلة العدد، فطلب المدد من أبيه، فجاءه أخوه إبراهيم باشا، واتفق القائدان على تقسيم العمل: إسماعيل يتَّجه نحو النيل الأزرق، وإبراهيم نحو النيل الأبيض. فتقدم إسماعيل حتى «تومات»، بينما عجز إبراهيم بسبب المرض فعاد

إلى مصر، وفي ١٨٢٢م، أرسل محمد علي جيشًا ثالثًا بقيادة محمد بك الدفتردار إلى كردفان فاستولى على الأبيض، وانتقم لاحقًا من الملك نمر الذي دبّر مكيدة أحرقت إسماعيل باشا ومن معه في شندي، وبعدها أحرق الجيش المدينة، وشيَّد الخرطوم سنة ١٨٢٣م. لم تحقق الحملة جميع أهدافها؛ فلم يُعثر على ذهب مجدٍ، وتعثرت التجارة بسبب الضرائب الباهظة، كما فشل مشروع التجنيد من السودانيين لعدم ملاءمة مناخ مصر لهم، وزاد الاتجار بالرقيق بعد الفتح حتى تدخلت بريطانيا وفرنسا، واضطر محمد علي إلى إعلان منعه سنة ١٨٣٨م، لكن الظاهرة استمرت حتى الاحتلال البريطاني

٤ _ أعمال محمد علي باشا في الديار المصرية

مقدمة

ورث محمد علي مصر في حالة فوضى بعد ظلم المماليك والعثمانيين، وعلم أن الإصلاح مهمة صعبة تتطلب صبرًا طويلًا، ومع أن هدفه الأول كان تأسيس ملك قوي يجمع المال والجنود، إلا أنَّه سرعان ما أيقن أن نهضة ملكه لا تكون إلا بإصلاح مصر، فأدخل النظم الحديثة، وأسس المدارس والمعامل، وشجع العلوم، وأرسل البعثات إلى أوروبا، محاربًا الجهل والخرافة، ورغم أخطائه أحيانًا إلا أنَّ إصلاحاته غيّرت وجه مصر ووضعته في مصاف كبار المصلحين

٤ _ ١ الحكومة في عهد محمد علي

بدأ حكمه دون تغيير كبير في النظام القديم، لكنه سنة ١٨٢٦م أدخل تعديلات واسعة مستوحاة من قوانين نابليون، فأنشأ «الديوان الخديوي» للفصل في القضايا، ومجلس المشاورة الملكي للنظر في شؤون الدولة، ومجلسًا وزاريًا، وأسس أيضًا دواوين متخصصة مثل «ديوان التجارة» و«مجلس المشاورة العسكرية»، وقسَّم القطر إداريًا إلى سبع مديريات و٦٤ مركزًا، ثم إلى نواحٍ وقرى يديرها العمد والمشايخ، ومع هذه المؤسسات ظل محمد علي منفردًا بالسلطة، يفاوض السفراء، ويدير المالية والمشروعات بنفسه

٤ _ ٢ التقدم المادي

الزراعة:

عدَّها أساس ثروة البلاد، فاستولى على الأراضي الزراعية تدريجيًا: أملاك المماليك، ثم الأوقاف، ثم ملكيات الأفراد، حتى أصبحت معظم الأراضي تحت يده، بينما صار الفلاحون مجرد مستأجرين مرتبطين بالأرض مقابل الضرائب، وأمر بمسح الأراضي وتنظيم الضرائب، وأصبح العمد مسؤولين أمام المديرين عن جبايتها، مما جعل الفلاحين تحت رحمتهم. واحتكر المحاصيل التي كان يحدد أنواعها بنفسه، ثم تُجمع وتُقيَّم وتباع عبر الحكومة، وبهذا سيطر على الزراعة والتجارة معًا، وأدخل محاصيل جديدة أحدثت ثورة في الاقتصاد، أهمها القطن طويل التيلة الذي أدخله الفرنسي «جوميل» سنة ١٨٢٠م، فكان بداية عصر جديد لمصر، كما شجع زراعة القنب والخشخاش والغابات، وحسّن الجنائن، ورغم هذه الإصلاحات إلا أنَّ الفلاحين ظلوا يعانون من أثمان بخسة لمحاصيلهم، وموازين مغشوشة، وإجبارهم على مقايضة إنتاجهم بمنتجات معامل الحكومة، ومع ذلك وفّرت هذه السياسة الموارد التي

مكّنته من بناء جيش وأسطول وخوض حروب عدة

الصناعة

أدرك محمد علي أهمية الصناعة بوصفها قاعدة للثروة والقوة العسكرية، فسعى إلى إدخال الصناعات الأوروبية وتشجيع الصناعات الوطنية، رغم الصعوبات المتمثلة في نقص المواد الخام كالفحم والحديد والخبرة المحلية، فأنشأ معامل متعددة في أنحاء البلاد، من أهمها معامل الغزل والنسيج للقطن والحرير والكتان والصوف، وكان أبرزها معمل بولاق الذي تولّى إدارته الفرنسي جوميل، كما أنشأ معامل للجوخ أدارها فرنسيون ثم مصريون درسوا في فرنسا، ومعامل للصباغة والطرابيش بفوة، ومصانع للسكر والزيوت، واهتم أيضًا بتوفير المواد الخام لهذه الصناعات؛ فشجع زراعة القطن والكتان والقنب، وحاول تحسين سلالات الأغنام وتربية دودة القز لإنتاج الحرير، ورغم نجاحات مبدئية إلا أن معظم المصانع تلاشت في حياته أو عقب وفاته بسبب التكاليف الكبيرة، وانعدام الاستمرارية، واعتمادها على دعم مالي مباشر منه، وقد أغلق معظم ما بقي متها نهائيًا في عهد عباس الأول

٤ _٣ الأشغال العامة

قام محمد علي بمشروعات كبرى غيرت وجه مصر، أهمها

أ _ ترعة المحمودية: ربطت النيل بالإسكندرية وحولت مجرى التجارة إليها، فعمرت الأراضي وزادت ثروة المدينة، وكلفت نحو ٣٠٠ ألف جنية

ب _ ميناء الإسكندرية: أصلحه موجيل بك، وأقيمت فيه دار صناعة بحرية وأحواض لبناء السفن، مما جعله مركزًا تجاريًا عالميًا، وازداد إقبال التجار على شراء المحاصيل المصرية

ت _ القناطر الخيرية: مشروع ضخم لتنظيم الري في الوجه البحري، خطرت فكرته مع انتشار زراعة القطن، وقد مرَّ المشروع بعدة خطط بين لينان باشا وموجيل بك، وتأخر إنجازه بسبب الأوبئة والبطء والملل، واستؤنف العمل فيه بعد وفاة محمد علي، واكتمل سنة ١٨٦١م، لكن لم يحقق كامل أهدافه إلا بعد إصلاحات لاحقة

كما فكر في مشروعات أخرى مثل سكة حديدية بين القاهرة والسويس، وحفر قناة السويس، لكنه لم يتحمس لها خوفًا من جعل مصر طريقًا دوليًا

٤ _ ٤ نهضة التعليم

عانت مصر قبل محمد علي من الجهل، فأولى التعليم عناية كبيرة رغم مقاومة الأهالي، فأسس مدارس ابتدائية وتجهيزية وخاصة، أبرزها مدرسة الطب بأبي زعبل سنة ١٨٢٧م بجهود كلوت بك، ومدرسة الطب البيطري، والهندسة، والموسيقى، والألسن برئاسة رفاعة الطهطاوي، ومدارس للفنون والزراعة. وأرسل بعثات عديدة إلى أوروبا خاصة فرنسا، منذ عام ١٨٢٦م، بلغ عدد أفرادها أكثر من ١٢٠ طالبًا، منهم شخصيات بارزة مثل علي مبارك باشا وشريف باشا، وقد أسهم هؤلاء في نقل العلوم الحديثة، والترجمة عبر مطبعة بولاق التي أنشأها محمد علي. ورغم أن التعليم لم يُبنَ على أسس متينة لحداثته وسرعة

تطبيقه، إلَّا أنَّه أحدث نقلة كبرى في فكر المصريين، ومهّد لنشوء جيل متعلم ساعد على التحديث، كما شجع العلماء الأوروبيين لدراسة الآثار المصرية مثل شامبليون وليبسيوس، مما ساعد على كشف أسرار الحضارة القديمة

٤ _ ٥ الجيش

رأى محمد علي أن قوته لا تكتمل إلا بجيش نظامي حديث، في البداية اعتمد على الألبانيين، لكن تمردهم جعله يستبدلهم تدريجيًا، فبدأ بتنظيم الجيش على الطريقة الأوروبية سنة ١٨١٥م، وواجه معارضة عنيفة، لكنه واصل خطته بحذر، واستعان بضباط فرنسيين مثل سليمان باشا الفرنساوي الذي نظم الجيش بأسوان، واعتمد في البداية على أسرى السودان ثم على الفلاحين رغم مقاومتهم الشديدة للتجنيد، ومع المثابرة نجح في بناء جيش قوي، وأنشأ مدارس للمشاة والفرسان والمدفعية، ومصانع للأسلحة والذخائر في قلعة الجبل، وتدرج عدد الجيش حتى بلغ في أواخر عهده ما يقارب ٢٧٦ ألف جندي بمختلف الفروع. وكان هذا الجيش منظمًا ومسلحًا على النمط الأوروبي، وأصبح عماد قوة محمد علي ووسيلته لتثبيت سلطانه ومجابهة خصومه

٤ _ ٦ البحرية

أنشأ محمد علي أول أسطول بحري في أثناء حربه مع الوهابيين، وكان الهدف نقل الجنود من السواحل المصرية إلى الجزيرة العربية، ثم أصبح وسيلة لحماية التجارة من القرصنة، لاسيما في البحر الأبيض المتوسط ضد لصوص اليونان، إذ قبل حرب اليونان اشترى سفنًا من البندقية ومرسيليا وصنع أخرى هناك، لكن معظمها تحطم في واقعة نوارين، وبعد هذه النكبة، أدرك أهمية البحرية، فأسس عام ١٨٢٩م دار صناعة بحرية في الإسكندرية تضم مصانع لفتل الحبال وصناعة الحديد والصواري والقلوع، إلى جانب مدرسة بحرية لتدريب الشباب المصريين على العلوم البحرية، وأشرف على ذلك المهندس «دي سريزي» ومدير المدرسة «بيسون» الذي أصبح أمير البحر، فارتقت العمارة البحرية وبلغت في ١٨٣٢م ثلاثين قطعة حربية تحمل ١٣٠٠ مدفع، ويعمل عليها ١٢٠٠٠ جندي. كما أرسل تلاميذ للتدريب العملي على السفن الإنجليزية، ولحماية السواحل، أنشأ حصونًا واستحكامات مزودة بالمدافع والعساكر في المواقع المهمة بمصر، مما ضاعف قوة البلاد ومكانتها

٤ _ ٧ ميزانية الحكومة

اتسع نطاق مشروعات محمد علي في الزراعة والصناعة والتعليم والجيش والبحرية، ما استلزم موارد مالية ضخمة إلَّا أنَّ مصر لم تعرف الميزانية السنوية المنظمة إلا بعد عهده، وتعتمد تقديرات تلك المرحلة على شهادات الأوروبيين، وفي البداية كان الدخل صغيرًا، إذ قُدّر عام ١٨٢١م بـ ١٢٠٠٠ جنية تقريبًا والمصروف أقلّ من ذلك، لكن بحلول عام ١٨٣٣م ارتفع الإيراد إلى ٢,٥ مليون جنية والمصروف إلى مليوني جنية. جاءت الإيرادات من ضريبة الأراضي (١,١٢٥,٠٠٠ جنية)، والتجارة (٤٥٠ ألفًا)، والمكوس على الحبوب (١٨٠ ألفًا)، والجمارك (١١٢ ألفًا)، وضريبة الرؤوس (٣٥٠ ألفًا)،

وبعد سنوات قليلة، في ١٨٣٨م، بلغ الدخل ٤,٥ مليون جنية والمصروف ٣,٥ مليون، ما يدلُّ على تضاعف موارد الدولة مع تضخم مشروعاتها

٥ _ حرب اليونان

بعد هزيمة نابليون، أُنشئ الحلف المقدس بين روسيا وبروسيا والنمسا لحماية العروش الملكية في أوروبا، لكن مبادئ الثورة الفرنسية سرعان ما انتشرت وأشعلت ثورات في إيطاليا وإسبانيا واليونان، وكانت الثورة اليونانية ذات طابع ديني قومي ضد الدولة العثمانية، ورغم تعاطف شعوب إنجلترا وفرنسا معها، إلَّا أنَّ الحكومات لم تدعهما رسميًا خشية تقوية روسيا، وكانت الدولة العثمانية حينها ضعيفة وممزقة، لاسيما بعد ثورة الإنكشارية والقضاء عليهم عام ١٨٢٦م، ولما استعصى إخماد الثورة، طلب السلطان محمود الثاني من محمد علي التدخل، فعُيّن واليًا على كريت ثم المورة، وأرسل ابنه إبراهيم باشا على رأس جيش قوامه ١٧ ألفًا عام ١٨٢٤م، فتمكن إبراهيم من السيطرة على معظم بلاد المورة، وحقق انتصارات بارزة أبرزها الاستيلاء على «تريبولتزا» و«مسولونجي» بعد حصار شديد خسر فيه المصريون ٦ آلاف جندي، لكن شدته في معاملة اليونان، وبيع آلاف الأسرى في مصر، أثارت استياء أوروبا، فاجتمعت إنجلترا وفرنسا وروسيا في مؤتمر لندن عام ١٨٢٦م وقرروا التدخل، أرسلت الدول الثلاث أساطيلها بقيادة الإنجليزي كدرنجتون إلى خليج نوارين، حيث وقع الاشتباك صدفة في أكتوبر ١٨٢٧م، وانتهى بتدمير الأسطول المصري _ التركي، ورغم ذلك، ظل إبراهيم مسيطرًا على المورة، لكن ضغوط أوروبا استمرت، فأرسلت فرنسا ١٥ ألف جندي لإجباره على الانسحاب، بينما هدد كدرنجتون الإسكندرية، فرضخ محمد علي وأمر بانسحاب جيشه عام ١٨٢٨م بعد ضمان عودة الأسرى المصريين وإطلاق سراح الأسرى اليونان، وأعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية في ١٨٢٩م وهزمتها، مما أجبر السلطان على توقيع معاهدة أدرنة التي اعترفت باستقلال اليونان الكامل

٦ _ حرب الشام

طالب محمد علي، بعد انتهاء حرب اليونان، الباب العالي بولاية عكاء مكافأة لمساعدته، لكن السلطان رفض، وعندما اندلعت حرب روسيا عام ١٨٢٩م لم يُلبِّ محمد علي طلب السلطان بإرسال جيش، ورأى أنَّ الفرصة مواتية لتوسيع نفوذه في ظل ضعف الدولة العثمانية، وانشغال القوى الأوروبية باضطراباتها الداخلية، وزاد التوتر مع الباب العالي بسبب عداء خسرو باشا له، ورفض والي عكاء عبدالله الجزَّار إعادة الفلاحين المهاجرين من ظلم محمد علي، فتضررت مصالح محمد علي التجارية، ومع تزايد الخلافات، أعلن محمد علي الحرب خوفًا من عزله، وجهز لذلك حملة برية وبحرية بقيادة إبراهيم باشا، فسيطر على غزة ويافا وحاصر عكاء ستة أشهر حتى سقطت عام ١٨٣٢م. بعدها تقدم إلى دمشق وحمص وحلب، محققًا انتصارات متتالية على الجيوش العثمانية، أبرزها في حمص وبيلان، وبحلول منتصف ١٨٣٢م كانت بلاد الشام ومعظم الأناضول تحت سلطته، ثم حقق انتصارًا حاسمًا على

الجيش العثماني في معركة قونية، فأصبح مهددًا للعاصمة العثمانية، وخشيت الدول الأوروبية من توسع محمد علي وتدخلت روسيا لصالح السلطان، فأُبرم صلح كوتاهية (١٨٣٣م) الذي منح محمد علي حكم بلاد الشام وولاية أذنة، مقابل وقف القتال، غير أن السلطان لجأ بعد ذلك إلى التحالف مع روسيا بموجب معاهدة «هنكار إسكله سي»، وهو ما أقلق بقية الدول الأوروبية

٦ _ ١ حكومة محمد علي في بلاد الشام وغزوته الثانية لها

لم يحل اتفاق كوتاهية النزاع؛ إذ ظل محمد علي يُعدُّ أن حكمه للشام مؤقت، وسرعان ما ثار الأهالي بسبب عسف حكمه: الضرائب الباهظة، والتجنيد الإجباري، واحتكار الحاصلات، ونزع السلاح. فاندلعت ثورات في دمشق وحلب ونابلس ولبنان بين ١٨٣٤م و١٨٣٦م، وقُمعت بيد إبراهيم باشا ومحالفه الأمير بشير الشهابي بعد معارك طويلة، فأدَّت هذه السياسة إلى عداء واسع ضد محمد علي، وأثقلت مصر بأعباء مالية وعسكرية جسيمة، وفي ظل هذه الاضطرابات كان السلطان محمود الثاني يستعد للانتقام واستعادة الشام، ورغم تردد الدول الأوروبية إلَّا أنَّ الباب العالي قرر الحرب عام ١٨٣٩م ودفع بجيش ضخم بقيادة حافظ باشا، مدعومًا بضباط ألمان، فالتقى الجيشان في معركة نصيبين (يونيو ١٨٣٩م) حيث أوقع إبراهيم باشا هزيمة ساحقة بالعثمانيين، ما ترك الدولة بلا جيش تقريبًا، وتزامن ذلك مع وفاة السلطان محمود، فازدادت الأزمة خطورة، وفي خضم الفوضى سلّم الأسطول العثماني نفسه لمحمد علي، مما أثار ذعرًا أوروبيًا، إذ بدا وكأن الدولة العثمانية باتت تحت رحمته، لكن تدخل الدول الأوروبية الكبرى ولاسيما إنجلترا وفرنسا وروسيا حال دون تحقيق محمد علي لاستقلال كامل، وبدأت الضغوط الدولية لإعادة التوازن بينه وبين الباب العالي

٦ _ ٢ تدخل دول أوروبا

سعت الدول الكبرى لمنع روسيا من استغلال معاهدة «هنكار إسكله سي»، فاقترح الباب العالي منح محمد علي حكم مصر وراثة، والشام لإبراهيم حتى يخلف والده، فرحبت روسيا بذلك لتتخلص من التزاماتها السابقة، لكن الدول الكبرى رفضت أن يتم الاتفاق دون إشرافها. وتوافق الفرنسيون والإنجليز أول الأمر على حماية الدولة العثمانية من النفوذ الروسي، ثم اختلفوا؛ فوزير خارجية إنجلترا بالمرستون رأى ضرورة فصل محمد علي عن الدولة بصحراء سيناء، بينما رأت فرنسا أن مصالحها تتحقق بدعمه، وعرضت أن تُمنَح أسرته جميع ولاياته وراثةً، فرفض الإنجليز، وبعد مفاوضات، طرح بالمرستون حلًا يقضي بوراثة مصر لمحمد علي وأولاده مع ولايات في الشام، لكن فرنسا رفضت، إذ كان رئيس وزرائها تييرس يراهن على قوة محمد علي ويخابره سرًّا

اتجهت روسيا للتفاهم مع إنجلترا، فأبدت استعدادها للتخلي عن امتيازاتها السابقة مقابل إغلاق المضايق في وجه الجميع عدا سفنها عند الحاجة، وهكذا تفاوضت أربع دول (روسيا، بروسيا، النمسا، إنجلترا) مع محمد علي عبر المبعوث الإنجليزي هدجس،

لكـن الأخير رفـض الخضـوع معتمـدًا على فرنسـا، وعندمـا فشـلت المفاوضـات، وقعـت الـدول الأربـع «معاهـدة لنـدن» في يوليـو ١٨٤٠م دون فرنسـا، ونصَّـت على عـودة محمـد علي لما فتحـه مـن أراضٍ عـدا عـكا، وعلى تقليـص نفـوذه، ومنـح مصر وراثـة لـه إن خضـع سريعًـا، وأثـارت المعاهـدة غضـب فرنسـا، ودفعـت إلى اسـتعدادات عسـكرية، لكـن سـقوط وزارة تـييرس أوقـف دعمهـا لمحمـد علي، فوجـد نفسـه وحيـدًا في مواجهـة التحالـف

٦ _ ٣ الحملة الأخيرة

مـع إعلان البـاب العـالي خلـع محمـد علي، اندلعـت المواجهـات في الشـام، وكان جيـش إبراهيـم باشـا لا يـزال قويًـا، لكـن سـكان الشـام ثـاروا عليـه بدفـع مـن إنجـلترا، فـكان ذلـك سـببًا رئيسًـا في انهيـاره، وبـدأت المعـارك بقصـف الأسـاطيل المتحالفـة لـبيروت في سـبتمبر ١٨٤٠م، ثـم توالـت الهزائـم المصريـة في صيـدا و«قلعـة ميـدان»، وأخيرًا سـقطت عـكا سريعًـا، مما اضطـر محمـد علي إلى إصـدار أمـر لابنـه بالانسـحاب مـن الشـام، وأظهـر الجيـش براعـة في التقهقـر المنظـم مـن دمشـق إلى غـزة، لكنـه تكبـد خسـائر جسـيمة، إذ هلك ثلثـا جنـوده في الطريـق. وأمـام هـذا الواقـع، توجـه الأسـطول المتحالـف إلى الإسـكندرية وهـدد بقصفهـا، فقبـل محمـد علي الخضـوع للسـلطان مقابـل ضمان بقـاء حكـم مصر وراثـة لـه ولأبنائـه، وبعـد مفاوضـات، صـدر فرمـان فبرايـر ١٨٤١م الـذي أقـرَّ وراثـة مصر لنسـله الذكـور ضمـن شروط صارمـة، منهـا: تقليـص الجيـش إلى ١٨ ألـف جنـدي، ودفـع خـراج سـنوي، والالتـزام بالقـوانين العثمانيـة، والحرمـان مـن أي اسـتقلالية سياسـية. وفي تقاليـد لاحقـة عُدلـت بعـض البنـود، فجُعلـت الوراثـة للأكبر سـنًا مـن أولاده، وخُففـت شروط الخـراج والرتـب العسـكرية، وبذلـك انتهـت أحلام محمـد علي التوسـعية، وحصر نفـوذه في مصر فقـط

٧ _ شيخوخة محمد علي وحكم إبراهيم

أصيـب محمـد علي _ بعـد حصره في مصر وتجريـده مـن فتوحاتـه _ بضعـف الشـيخوخة واضمـحلال قـواه، وعانـت الـبلاد مـن أزمـات اقتصاديـة وكـوارث طبيعيـة كطاعـون الماشـية والجـراد، فانهـارت مواردهـا واشـتدت معانـاة أهلهـا، وحـاول محمـد علي تحسـين أوضاعـه بتحصين الإسـكندرية والشروع في بنـاء القناطـر الخيريـة سـنة ١٨٤٧م إلَّا أنَّ ظروفـه الصحيـة والسياسـية لم تسـاعده، وفي هـذه الفـترة ضعف ابنـه إبراهيـم باشـا أيضًـا، فسـافر للاستشـفاء في أوروبـا، ثـم عـاد ليتـولى الحكـم رسـميًا عـام ١٨٤٨م، لكنـه تـوفي بعـد أشـهر قليلـة متأثـرًا بمرضـه، وتـولَّى حفيـده عبـاس باشـا الأول الحكـم، بينـما عـاش محمـد علي آخـر أيامـه منهـكًا فاقـدًا لقـواه العقليـة، حتـى تـوفي في الإسـكندرية في أغسـطس ١٨٤٩م، ودُفـن في مسـجده بالقلعـة، وهكـذا أسـدل السـتار على حيـاة مؤسـس مصر الحديثـة، الـذي جمـع بين عظمـة الطمـوح وقسـوة النهايـات

الفصل الثالث: الطريق البري بين الهند وأوروبا

كانـت الضرائـب على التجـارة بين أوروبـا والهنـد عبر مصر أهـم مـوارد المماليـك حتـى اكتشـاف البرتغاليين طريـق رأس الرجـاء الصالـح، الـذي حـل محـل طريق مصر لسـهولة النقـل وقلَّـة نفقاتـه وخلـوه مـن أخطـار البحـر

المتوسط وقطاع الطرق، وظلت التجارة عبر الرأس حتى أواخر القرن الثامن عشر حين سعت إنجلترا لإحياء طريق مصر لقربه من الهند، وأول من حاول ذلك كان جورج بلدوين، سفير إنجلترا بمصر زمن الثورة الفرنسية، حيث حصل على إذن بالملاحة في البحر الأحمر، لكن الباب العالي ألغاه سريعًا، وبعد ذلك عرض التاجر الإنجليزي برجز المشروع على محمد علي في أثناء حربه مع الوهابيين، فأرسل بعض السفن إلى بمباي، لكن المحاولة لم تنجح، ومع احتكار محمد علي للتجارة، تقوَّى نفوذ الإنجليز، وكان لهم النصيب الأوفر منها. وبرز توماس وجهورن، ضابط الأسطول الإنجليزي، الذي أيقن بعد إصلاحات محمد علي وأمن الطرق وأهمية السفن البخارية، بإحياء الطريق، فقدم اقتراحه لشركة الهند الشرقية عام ١٨٢٣م لكنها رفضته، ومع ذلك ظل السفير بركر يدعمه حتى اقتنعت الحكومة البريطانية بالمشروع عام ١٨٣٠م. وساند محمد علي وجهورن بحماس، حتى إن الأخير رفع مذكرة للبرلمان الإنجليزي يوصي بمصر، معترفًا بفضل الوالي، وبعد جهاد عشرين عامًا تحقق النجاح، ففي أكتوبر ١٨٤٥م وصلت باخرة من بمباي إلى السويس في ١٩ يومًا، ونقل البريد إلى لندن خلال شهر، وحاولت فرنسا منافسة إنجلترا، فاتخذت مرسيليا مركزًا عامًا للبريد عام ١٨٤٠م. وسهّل الطريق تأسيس شركة ملاحية في ترعة المحمودية والنيل قبل وفاة محمد علي، فبلغ عدد المسافرين سنويًا نحو ١٥ ألفًا (١٨٤٢ _ ١٨٤٩م). وتوفي وجهورن عام ١٨٥٠م معترفًا بفضل محمد علي، ونُصب له تمثال بالسويس، وامتاز عن ديلسبس بأنه لم يستنزف أموال مصر ولم يعمل ضدها، وأهدت إنجلترا وسامًا لمحمد علي عام ١٨٤٠م تقديرًا لدوره في فتح الطريق البري للهند

الباب الثالث: تاريخ مصر من الحملة الفرنسية إلى انتهاء عهد محمد علي

الفصل الأول: عباس باشا الأول (١٢٦٥ _ ١٢٧٠هـ/ ١٨٤٩ _ ١٨٥٤م)

تولَّى عباس باشا الأول الحكم بعد وفاة محمد علي سنة ١٨٤٨م، وهو ابن طوسون بن محمد علي، وكان في نحو السادسة والثلاثين، واتَّجه منذ البداية إلى نقض معظم إنجازات جده، فألغى الاحتكار، وقلص الجيش إلى تسعة آلاف جندي، وأغلق المدارس والمعامل، واستغنى عن الموظفين الأوروبيين، مفضلًا العودة إلى العادات التركية، فعاش في عزلة بعيدًا عن الناس، مقتنعًا بعبث مقاومة أوروبا بعد إخفاق حروب الشام وسقوط آمال محمد علي، فآثر السكينة والتقشف. ومع ما وُجّه إليه من نقد، فقد تميّز حكمه بخلو مصر من الديون الأجنبية وتخفيفها من وطأة الأجانب، وكان أهم إنجاز في عهده إنشاء أول خط حديدي بين القاهرة والإسكندرية (١٨٥٢ _ ١٨٥٦م) برعاية إنجليزية، قُتل عباس فجأة في قصره ببنها سنة ١٨٥٤م في ظروف غامضة، وتعددت الروايات عن مقتله، ثم تولَّى الحكم عمه سعيد باشا

سعيد باشا (١٢٧٠ _ ١٢٧٩هـ/ ١٨٥٤ _ ١٨٦٣م)

نشأ سعيد محبوبًا عند أبيه محمد علي، وتلقى تعليمه في فرنسا، وتسلم الحكم والبلاد في وضع مالي جيد بلا ديون، ودخل

سنوي يكفي حاجاتها، وبدأ حكمه بنشاط، لكنه ما لبث أن استبد بالسلطة، فألغى المجلس الخصوصي، وأقصى الوطنيين، وأكثر من مخالطة الأجانب حتى ضعفت هيبته، ثم انغمس في حياة الترف واللذات، ففسدت الإدارة، واهتم أساسًا بالجيش، غير أنه كان يبدل في نظامه وفق أهوائه، وجعل القناطر الخيرية معسكرًا رئيسًا، ورغم ضعفه، سعى لتحسين الزراعة والري؛ فأصدر قانون الأراضي سنة ١٨٥٨م الذي مكّن الفلاح لأول مرة من ملكية الأرض، ووضع نظام الضرائب الحديث بدل المكوس السابقة، كما مد السكك الحديدية وحفر الترع وغرس الأشجار، غير أنَّه لم يهتم بالعلم والمدارس لاعتقاده أنَّها تُصعِّب حكم الشعب

أخطر ما وقع في عهده أمران: فتح باب الاستدانة الأجنبية سنة ١٨٦٢م، إذ اقترضت حكومته من لندن أكثر من ثلاثة ملايين جنية، حتى بلغت ديون مصر عند وفاته عشرة ملايين تقريبًا؛ ثم منحه ديلسبس امتياز حفر قناة السويس، الذي جرّ على مصر ويلات اقتصادية واجتماعية جسيمة، إذ تم تنفيذه بجهود وأموال المصريين لا فرنسا كما وُعد، توفي سعيد باشا سنة ١٨٦٣م تاركًا البلاد مثقلة بالديون وبأعباء مشروع القناة

الفصل الثاني: قناة السويس

تعود فكرة ربط البحرين إلى عصور قديمة؛ إذ وُجدت ترعة في عهد سيتي الأول (١٣٨٠ق.م) تربط بين النيل والبحر الأحمر عبر وادي الطميلات، ثم أهملت. وفي عهد نخاو (٦٠٩ ق.م) أعيد حفرها، لكن توقف العمل بعد هلاك آلاف الفلاحين، وحاول الفرس بقيادة دارا إحياءها دون إتمام، ثم أتمها بطليموس الثاني (٢٧٧ق.م) قبل أن تهمل مرة أخرى، وعند الفتح الإسلامي، أعاد عمرو بن العاص فتحها وسُميت خليج أمير المؤمنين، وظلت مستخدمة حتى أمر أبو جعفر المنصور بردمها عام ١٤٥هـ. وطرح نابليون، في العصر الحديث، فكرة قناة مباشرة بين البحرين، لكن خطأ المهندس لابير الذي اعتقد بارتفاع البحر الأحمر حال دون التنفيذ. وظلت الفكرة قائمة حتى عهد محمد علي، حيث أثبتت بعثة ١٨٤٧م تساوي منسوب البحرين، لكن محمد علي تردد في التنفيذ، ومع تولي سعيد باشا، منح فرديناند ديلسبس امتياز حفر القناة عام ١٨٥٤م، وتلاه عقد ١٨٥٦م الذي منح الشركة امتيازات واسعة لمدة ٩٩ عامًا، منها: أراضٍ مجانية، وإعفاءات ضريبية، واستغلال المناجم، ورسوم مرور منخفضة، وقد اشترط أن يكون أربعة أخماس العمال من الفلاحين المصريين. وواجه المشروع معارضة شديدة من إنجلترا التي رأت فيه تهديدًا لمصالحها في الهند، ورغم اعتراضها في القسطنطينية ولندن، تمكن ديلسبس من استصدار موافقة الباب العالي عام ١٨٥٨م، وبدأ العمل في بورسعيد ١٨٥٩م، واستعان ديلسبس بالفلاحين بالسخرة، حيث سيق عشرات الآلاف للعمل تحت ظروف قاسية أودت بحياة الكثيرين، مما أثار انتقادات أوروبية وخاصة إنجليزية، وعندما تولَّى الخديوي إسماعيل (١٨٦٣م)، رفض الامتيازات المجحفة، وقلّص أعداد الفلاحين المسخرين واستعاد بعض الأراضي، لكن التحكيم الدولي الذي أجراه نابليون الثالث ألزم إسماعيل بدفع غرامات باهظة

بلغت أكثر من ثلاثة ملايين جنية، ما عزز موقف الشركة، بعد ذلك، استبدلت الشركة العمال بالسخرة بعمال مدربين، وتحسن وضعها المالي، وأكمل المشروع بدعم فرنسي. وافتُتحت القناة رسميًا عام ١٨٦٩م في احتفال ضخم. ومع ذلك، تحملت مصر أعباء مالية إضافية؛ إذ دفعت مبالغ كبيرة مقابل أراضي الطميلات وبعض المباني، وبلغت تكلفة الحفر نحو ١٧,٥ مليون جنية، بينما أنفقت الحكومة المصرية ما يقارب ١٦٠ مليون فرنك. واقتصرت فائدة القناة، في بدايتها، على السفن الشراعية بسبب استهلاك البواخر للفحم، لكن بعد تطوير المحركات البخارية اتسع استخدامها. ورغم ذلك، عانت الشركة من ضعف الأرباح وانخفاض قيمة أسهمها حتى مؤتمر ١٨٧٣م الذي أقرَّ زيادة الرسوم، فبدأت بالنجاح التدريجي غير أن مصر لم تستفد؛ إذ تحملت التكاليف والخسائر البشرية، وفقدت جزءًا من دخل سكك الحديد بعد تحول التجارة للقناة، كما تنازلت عام ١٨٨٠م عن حصتها من الأرباح مقابل دين زهيد، وبذلك كانت مصر والفلاحون هم الخاسر الأكبر، بينما جنت فرنسا وبريطانيا الثمار السياسية والاقتصادية

وقد جعلت تعدد مصالح الدول الأوروبية في القناة سببًا لتحييدها، مع بقاء احتمالية إعادة النظر في شؤونها مستقبلًا

الفصل الثالث: إسماعيل باشا (١٢٧٩ _ ١٢٩٦هـ/ ١٨٦٣ _ ١٨٧٩م)

يُعدُّ إسماعيل باشا ابن إبراهيم باشا المتمم الحقيقي لأعمال محمد علي، وسار على نهجه في الإصلاح والنهوض بمصر، تولى عرش مصر في ٢٧ رجب ١٢٧٩هـ/ ١٨ يناير ١٨٦٣م، وكان عمره ٣٢ سنة، وقد امتاز بالذكاء وقوة الملاحظة، ودرس اللغة الفرنسية في باريس، وزار أوروبا حيث اطلع على أسباب الحضارة الأوروبية، رغم أنه لم يتلق تربية تؤهله لتولي الملك منذ صغره. وواجه إسماعيل مشكلات مالية بسبب سرعة تنفيذ الإصلاحات والإنفاق الكبير، مما أدَّى إلى استدانة مصر من أوروبا وتدخلها لاحقًا في شؤون البلاد، لكنه حقق إنجازات مهمة انعكست على تقدم مصر

١ _ وراثة العرش

سعى إسماعيل لتقليص النزاع على العرش بين أفراد الأسرة، فطالب الباب العالي بجعل الوراثة لأكبر أولاد الخديوي بلا شرط، وهو ما تحقق في ١٢ المحرم ١٢٨٣هـ/ ٢٧ مايو ١٨٦٦م مقابل زيادة الجزية المصرية من ٢٢٠٠٠٠ إلى ٦٠٠٠٠٠ جنية

كما حصل على لقب «خديوي» في ربيع الأول ١٢٨٢هـ/ يوليو ١٨٦٧م، ومنحه الباب العالي استقلالًا داخليًا تامًا بمقتضى عهد ربيع الآخر ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م، بما ضمن له حرية إدارة شؤون البلاد الداخلية والتصرف في القروض والجيش ضمن حدود معينة

٢_ الاستقلال الداخلي والإدارة

نظم إسماعيل إدارة مصر الداخلية، بعد حصوله على الاستقلال الداخلي، وأدخل إصلاحات واسعة في نظام الإدارة، والمكوس، والبريد، وتقسيم البلاد إلى ١٤ مديرية، وحسن طرق الاتصال والقضاء

٣ _ الإصلاحات القضائية ومساواة جميع الناس أمام القانون

أولى إسماعيل اهتمامًا كبيرًا بإصلاح القضاء

وجعل المحاكم مستقلة عن الإدارة، وأسس المحاكم المختلطة لتساوي الجميع أمام القانون، بما يشمل الأجانب والمصريين

وتعاون مع نوبار باشا، واستمرت المفاوضات مع الدول الأوروبية سبع سنوات، حتى تأسست المحاكم المختلطة في ذي الحجة ١٢٩١هـ/ يناير ١٨٧٥م، وفتحت أبوابها في المحرم ١٢٩٣هـ/ فبراير ١٨٧٦م. شملت المحاكم القاهرة، الإسكندرية والمنصورة، مع محكمة استئناف عليا بالإسكندرية

٤ _ التربية والتعليم

حرص إسماعيل على التعليم لجميع طبقات الشعب، وأسهم في نشر العلم والتعليم العالي، وأنشأ مدارس متنوعة مثل مدرسة الهندسة، والطب، والحقوق، والفنون، والألسن، ودار العلوم، مع مراعاة الحرية في اختيار اللغة مع إجبار على تعلم العربية والتركية، وأصدر قانون التعليم في ١٠ رجب ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٧م، وارتفع عدد التلاميذ إلى ١٢٠٩٧٧وعدد المدارس إلى ٤٨١٧، كما شجع تعليم البنات بإنشاء أول مدرسة خاصة لتعليمهن الواجبات المنزلية، وأسهم في تطوير دار الكتب، وجمع الكتب والمصاحف المزخرفة، ورفع مستوى الثقافة والمعرفة، مما ساعد على النهضة الحديثة في مصر

_ دار الآثار المصرية

حرص إسماعيل على حماية الآثار المصرية القديمة، وبذل جهدًا مع مريت باشا في تنظيم دار العاديات، ونقلها من بولاق إلى الجيزة عام ١٣٠٨هـ/ ١٨٩١م، ثم إلى مكانها الحالي قرب قصر النيل عام ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م أسهمت هذه الجهود في المحافظة على التراث الثقافي المصري وظهوره بمستوى يضاهي أعظم دور الآثار الأوروبية

٥_ منع تجارة الرقيق

سعى إسماعيل باشا إلى القضاء على تجارة الرقيق داخل مصر، فلم يكتف بمنعها على الورق، بل عزم على اقتلاع هذه المهنة تمامًا، وصادف صعوبات جمة بسبب اعتقاد بعض شرائح الشعب بعدم مخالفة الدين الإسلامي لهذه التجارة، ولفت كبار المستكشفين الإنجليز، مثل ليفنجستون وبيكر وأستانلي، الأنظار إلى الفظائع المرتكبة في وسط أفريقيا، وأكدوا معاناة السكان من الذل والعذاب

تم توظيف السير صموئيل بيكر لاستكشاف منابع النيل الأبيض وإنشاء نقاط عسكرية لمنع تجارة الرقيق، فنجح جزئيًا، وأعلن رسميًا ضم المقاطعات الاستوائية للحكومة المصرية سنة ١٨٧١م. كما عمل بعده غردون وكمت دلا سلا على محاربة الجلابين، لكن القضاء على تجارة الرقيق بالكامل كان مستحيلًا في ذلك الوقت، فأبرم إسماعيل باشا معاهدة مع بريطانيا سنة ١٨٧٧م وأخرى في ١٨٧٨م لمنع بيع الرقيق، ونال إشادة دول أوروبا بهذا الإنجاز

٦_ منح السلطة للنظار وإنشاء مجلس شورى النواب

أعاد إسماعيل باشا المجلس المخصوص الذي أسسه محمد علي باشا، ووسع اختصاصاته حتى صار شبيهًا بمجلس الوزراء، لكنه احتفظ بالسلطة المطلقة، وشكل أول مجلس نظار برئاسة نوبار باشا سنة ١٨٧٨م بمشاركة بعض الأجانب،

ومنحهم مسؤولية اتخاذ القرارات، وأنشأ أيضًا مجلس شورى النواب في ١٩ نوفمبر ١٨٦٦م، وافتتحه بمشاركة العلماء والأعيان، فكان المجلس يناقش الحكومة ويقدم الرأي في التغيرات المالية والمشروعات العامة، ونتيجة قلة خبرة الأعضاء في البداية، إلا أنَّه قد تم تدريبهم على أعمال المجلس بواسطة شريف باشا

٧ _ التقدم المادي والأعمال العامة

الزراعة

اهتم إسماعيل باشا بالزراعة بوصفها ثروة البلاد، فحفر أكثر من ٢٠٠ ترعة، وأقام آلاف الأميال من الطرق الزراعية، وأنشأ نحو ٥٠٠ قنطرة، وأصلح ١٥٠٠٠ فدان مما زاد الأراضي المزروعة بنسبة ٣٠٪. خلال الحرب الأهلية الأمريكية، وارتفعت أسعار القطن فزاد إسماعيل باشا من زراعته، ثم اتّجه لزراعة قصب السكر وأنشأ معامل ومصانع وخطًا حديديًا من القاهرة إلى أسيوط، وأنفق ملايين الجنيهات على مشاريع الري والزراعة

التجارة

أنشأ منارات في البحر المتوسط والأحمر لتوجيه السفن، وأصلح موانئ السويس والإسكندرية بالتعاون مع شركات فرنسية وإنجليزية، وبنى أسطولًا تجاريًا لنقل البضائع والبريد، ما عزز مكانة مصر التجارية

الأعمال العامة

طور شبكة السكك الحديدية من ٣٣٠ ميلًا قبل حكمه إلى ١٣٣٠ ميلًا، وأنشأ خطوط حديدية في أفريقيا، وبنى ٥٢٠٠ ميل من الأسلاك البرقية، وأسس مكاتب بريد تجاوزت ٢١٠ مكاتب، وأنار المدن بالغاز ومدّها بالمياه، وأنشأ شوارع واسعة بالقاهرة والإسكندرية والسويس، فزادت الصادرات والواردات بشكل مطرد

٨ _ حروب إسماعيل باشا والفتوح التي تمت في عصره

اهتم إسماعيل باشا بجيشه، فجهزه بأفضل الأسلحة، وضم ضباطًا أوروبيين وأمريكيين، وبلغ الجيش النظامي ٦٠ ألف مقاتل

توسيع النفوذ في أفريقيا

عهد إلى صمويل بيكر وغردون باشا باستكشاف ضفاف النيل الأبيض والسيطرة على السودان، وأنشأ نقاطًا عسكرية لمنع تجارة الرقيق، وفتح دارفور عام ١٨٧٣م، وهرر عام ١٨٧٥م، وأرسل حملات إلى نهر جوبا وبلاد قسمايو، كما خاض حروبًا ضد الحبشة ونجح جزئيًا بعد صلح عام ١٨٧٦م

رجوع غردون إلى الحكومة المصرية

تولّى غردون، في ١٨٧٧م، حكم جميع الأقطار السودانية، وقسم المديريات الاستوائية إلى قسمين لإدارة أفضل، وقضى على عصيان الزبير باشا وابنه سليمان، واستمر في مكافحة تجارة الرقيق حتى استقالة حكمه في عهد توفيق باشا

٩ _ إتمام قناة السويس

كان لإسماعيل باشا الدور الأكبر في إنجاز قناة السويس، فأشرف على الافتتاح في ١٨٦٩م بالإسماعيلية، ودعا ملوك أوروبا وأمراءها، وأنفق ملايين الجنيهات على تجهيز الحفلة، بما فيها القصر المزخرف وملحقاته، والطرق المؤدية للأهرامات، وتهيئة السكك الحديدية والعربات والمرافق للزوار، وهذا

المشروع أضاف مرحلة جديدة للملاحة العالمية، وساعد على تقصير الرحلات بين الشرق والغرب، وارتبط اسمه دومًا باسم إسماعيل باشا

الفصل الرابع: المسألة المالية وانتهاء حكم إسماعيل باشا

لقد شهدت مصر في عهد إسماعيل باشا مشروعات ضخمة وأعمال عامة واسعة، فضلًا عن قصوره وحفلاته الباذخة، مما استلزم نفقات هائلة تجاوزت قدرة خزائن الدولة على التحمل، ولتغطية هذه النفقات، لجأ إسماعيل باشا إلى طرق متعددة، منها

الدين السائر: تأجيل دفع بعض الأعمال بدون نقد

الديون الثابتة: اقتراض من الدول الأوروبية بضمان موارد ثابتة مثل دخل المديريات

الديون المحلية: جمع الأموال من الأهالي بزيادة الضرائب أو قوانين خاصة مثل قانون المقابلة، الذي سمح للفلاحين بتسديد ضريبة ست سنوات مقدمًا مقابل إعفاء دائم من نصف الضرائب السنوية، ودين الرزنامة الذي كان يتيح للمواطنين إقراض الحكومة مقابل عوائد سنوية ٩٪. وقد استدان إسماعيل باشا، في عام ١٨٧٣م، مبلغ ٣٢٠ مليون جنية لتسديد الديون السائرة، لكن ما حصلته الحكومة فعليًا كان ٢٠٠٦٢٠ جنية بعد الخصومات، وكان جزء كبير من المبلغ سندات خزينة، ومع استمرار الأزمة المالية، لجأت الحكومة لبيع أسهم القناة وإنشاء سندات على خزائن الدولة، لكن هذه الإجراءات لم تحل الأزمة، وفي أكتوبر ١٨٧٥م بدأ التدخل الأوروبي الفعلي، حين طلب إسماعيل باشا من الحكومة الإنجليزية إرسال موظف خبير بالشؤون المالية، فجاء المستر كيف لتقديم تقرير حول تسوية الديون المصرية، لكنه لم يُنفذ، وفي أبريل ١٨٧٦م توقف الخديوي عن صرف سندات الخزانة، مما عُدَّ بداية المشكلة المالية الحقيقية وتدخل أوروبا في الشؤون المصرية، فتم إنشاء صندوق الدين بإشراف مندوبي الدول الأوروبية، وتم توحيد الديون المصرية بمبلغ ٩١٠٠٠٠ جنية بفائدة ٩٪، مع التزام بسدادها خلال ٦٥ سنة. إلا أن الدائنين الإنجليز طالبوا بتعديل النظام بسبب فروق الديون، فتم في نوفمبر ١٨٧٦م تعديل الدين الموحد، وحُدد سعره ٦٪، مع سداد ١٪ من الأصل سنويًا. بعد ذلك، بدأ إسماعيل باشا بالإصلاحات بإشراف موظفين أوروبيين، مثل: المراقب الإنجليزي للسير رفرز ولسن، والمراقب الفرنسي المسيو بلنيير. لكن الخديوي لم يمنحهم الحرية الكاملة، وظلت المصاعب المالية مستمرة، بما فيها مشاكل دفع الرواتب للجند، مما أدَّى إلى اضطرابات ومشاكل سياسية، وطلبت لجنة التحقيق التي تشكّلت أبريل ١٨٧٨م برئاسة المسيو ديلسبس وبإشراف الأوروبيين إصلاحين رئيسيين، هما

١ _ التنازل عن أملاك الأسرة الخديوية للحكومة مقابل راتب سنوي

٢ _ عدم إدارة شئون البلاد منفردًا، مع إشراك وزراء مؤاخذين

وفي أغسطس ١٨٧٨م، شُكلت وزارة برئاسة نوبار باشا ضمت الأوروبيين، وأصبحت الأملاك الدومينية ضمانة لدين جديد يسمى دين روتشيلد، وبدأت اللجنة الإصلاحية بفحص الشؤون المالية، لكنها واجهت

عراقيل من الخديوي، الذي سعى لاستعادة نفوذه ورفض إعلان إفلاس الحكومة، وأعد مشروع تسوية مالي خاص به بمساعدة أتباعه، وأدَّت هذه الأوضاع إلى غضب الدول الأوروبية، التي رأت أنَّه لا يمكن تسوية الشؤون المالية وتثبيت حقوق رعاياها ما دام إسماعيل باشا في السلطة، فاتُخذ قرار بعزله، وأُبلغ إسماعيل باشا بالقرار في يونيو ١٨٧٩م، فتنازل عن الحكم وسلم السلطة لابنه توفيق باشا، وغادر مصر إلى إيطاليا في نهاية يونيو ١٨٧٩م

الفصل الخامس: أوائل حكم توفيق باشا

(١٢٩٦ _ ١٢٩٨هـ/ ١٨٧٩ _ ١٨٨١م)

تولَّى توفيق باشا الحكم في (١٩ شعبان ١٢٩٦هـ/ ٨ أغسطس ١٨٧٩م) والبلاد غارقة في الأزمات، إذ كانت الخزينة فارغة، والجيش مختل النظام، والسخط شعبي من الفقراء والأغنياء، ونقمة الأوروبيين بسبب تأخر الديون وكساد التجارة، ورغم أنَّ توفيق لم يكن قوي العزم إلَّا أنَّه كان محبًا للبلاد، ساعيًا لإصلاحها، واقتضى الأمر قبل الشروع في الإصلاح أن تُحسم أربع مسائل أساسية، وهي: تحديد نفوذ الخديوي، وتقرير العلاقة مع الدولة العثمانية، ونوع إشراف الأوروبيين على مصر، وتسوية المسألة المالية مع الدائنين. وفي المسألة الأولى عهد الخديوي إلى شريف باشا بتشكيل وزارة، فاقترح نظامًا نيابيًا خالصًا إلَّا أنَّ توفيق رفض لعدم ملاءمة البلاد للانتقال المفاجئ من الاستبداد إلى النيابة، فاستقال شريف في (٢٩ شعبان ١٢٩٦هـ/ ١٨ أغسطس ١٨٧٩م)، وبعدها قرر توفيق ترؤس مجلس الوزراء بنفسه، ثم أسند الوزارة إلى رياض باشا (٤ شوال / ٢٢ سبتمبر)، ومنح الوزراء نفوذًا حقيقيًا، فاستقرت الأمور نسبيًا

أما مسألة علاقة مصر بالدولة العثمانية، فقد سعى الباب العالي بعد عزل إسماعيل لإلغاء امتيازات تقليد سنة (١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م)، وقد منح ذلك التقليد أربع ميزات:١_ حصر الوراثة في أكبر أبناء الخديوي.٢_ حق مصر في عقد معاهدات تجارية. ٣_ حق الخديوي في الاقتراض الخارجي. ٤_ حرية زيادة الجيش. وعارضت فرنسا إلغاء الامتيازات كلها حفاظًا على نفوذها، أما إنجلترا فاقتصرت معارضتها على مسألة الوراثة ضمانًا للاستقرار، وبعد جدال، صدر تقليد جديد يقيد الجيش بحد ١٨٠٠٠ جندي في السلم، ويمنع عقد قروض إلا بالاتفاق مع الدائنين

وأما المسألة الثالثة وهي تعيين نوع إشراف الأوروبيين على شؤون الحكومة، فقد تقرر إعادة المراقبة الثنائية، على أن يقتصر دور المراقبين على الفحص والتدقيق دون التدخل المباشر، فعُيّن السير إفلين بيرنج عن إنجلترا ودي بلنيير عن فرنسا (ذو الحجة ١٢٩٦هـ/ نوفمبر ١٨٧٩م)، ولم يُعزل أي منهما إلا بموافقة دولته، ونالا ثقة الحكومة المصرية، فحضرا مجالس الوزراء، وأعدا مشروعات أسهمت في إصلاح المالية وتسوية الديون، ومهّدا لإصلاحات لاحقة

وأما تسوية المسألة المالية مع الدائنين، فقد أنشئت لجنة «التصفية» للفصل النهائي بين مصر ودائنيها برئاسة السير رفرز ولسن، وفي أثناء أعمالها قدم المراقبان مشروعًا لتخفيض فوائد الدين وإلغاء المتأخرات، مع إصلاحات ضريبية شملت: إلغاء قانون

المقابلة نهائيًا، وتقليص الفارق بين الأراضي العشرية والخراجية بزيادة ضريبة على الأولى، وإلغاء معظم الضرائب الصغيرة المرهقة، وتنظيم مواعيد دفع الضريبة الزراعية بما يناسب الفلاحين. وفي النهاية صدر «قانون التصفية» في (٨ شعبان ١٢٩٧هـ/ ١٧ يوليو ١٨٨٠م) متضمنًا أهم النقاط

١. تخفيض فائدة الدين الموحد من ٧٪ إلى ٤٪ وضمانة من دخل الجمارك والمكوس ومديريات محددة

٢. إدخال الديون القصيرة الأجل ضمن الدين الموحد بعد خصم ٢٠٪

٣. إصدار قرض ممتاز جديد ٨٧٤٣٨٠٠ جنية لتسوية الديون السائرة

٤. إشراف دولي على «الدائرة السنية».

٥. صرف ١٥٠ ألف جنية سنويًا لمالكي أراضي «المقابلة»

٦. تقسيم دخل الحكومة بين إدارة البلاد وسداد الديون

وبعد الفصل في مسألة الدين تفرغت الحكومة والمراقبة لإصلاحات عديدة، أهمها في التعليم حيث شُكلت لجنة علمية برئاسة علي إبراهيم باشا في (٧ جمادى ١٢٩٧هـ/ ٢٧ مايو ١٨٨٠م)، فأعادت تنظيم المناهج ووسّعت التعليم، وضاعفت ميزانية المعارف، وأولت عناية بالري، وشق الترع، وبناء القناطر والجسور، فدخلت البلاد طور إصلاح واعد، غير أن الأحداث السياسية سرعان ما قطعت الطريق باندلاع الثورة العرابية.

الفصل السادس: الحوادث العرابية ١٢٩٨ - ١٢٩٩هـ / ١٨٨١ _ ١٨٨٢م

عندما كانت الإصلاحات تسير في طريق تقدم البلاد، انتشر الاستياء في الجيش بسبب أن الترقيات كانت غالبًا للأتراك والشراكسة، بينما قلما نال الضباط المصريون الرتب العليا، وزاد السخط حين أصدر عثمان رفقي باشا قانون القرعة الذي منع الترقي من تحت السلاح، فرأى الضباط أن مدة الخدمة أربع سنوات في الجيش غير كافية للترقي

بداية الثورة العرابية

تذمر بعض الضباط المصريين بقيادة علي فهمي، وأحمد عرابي، وعبد العال حلمي، وقدموا معروضًا إلى رياض باشا يطالبون بعزل رفقي باشا وإجراء تحقيق في الترقيات الأخيرة، المعروض أثار غضب الخديوي الذي أمر بمحاكمة الضباط، فهاجم ضباط الآلايين مجلس النظار وأنقذوا رؤسائهم بالقوة، ثم سار عرابي وعلي فهمي إلى قصر عابدين لطلب عزل ناظر الحربية، فاستجاب الخديوي وأبعد رفقي باشا، وبعد ذلك شكلت لجنة للنظر في مظالم الجيش، ورفعت رواتب الضباط والجند، وأصبحوا على قدم المساواة مع الأتراك والشراكسة، فهدأت الأحوال مؤقتًا

تمدد نفوذ عرابي

ازداد تأثير عرابي بين الجيش والعمد والعلماء، وبدأ يصدر منشورات يطمئن فيها قناصل الدول الأجنبية، ويعلن نفسه صاحب الحق في حفظ النظام، وفي سبتمبر ١٨٨١م، سار الجيش بقيادة عرابي إلى ميدان عابدين، مطالبًا بعزل جميع النظار، وتشكيل مجلس نيابي، وزيادة الجيش إلى ١٨ ألف جندي، وافق الخديوي على عزل النظار وترك أمر الطلبين الآخرين لقرار الباب العالي، وتشكلت وزارة جديدة برئاسة شريف

باشا، وأبعد رؤساء الحزب العسكري عن العاصمة، لكن نفوذ عرابي استمر بالتزايد، وتم تنصيبه وكيلًا لنظارة الحربية، ما عزز موقف الحزب العسكري على الحكومة

تدخل الدول الأوروبية

رأت فرنسا وبريطانيا ضرورة التدخل لحماية مصالحها، وأرسلت مذكرة إلى الخديوي في يناير ١٨٨٢م، وهو ما أزعج المصريين وعضد موقف عرابي وحزبه، فاستقال شريف باشا، وشكلت الوزارة الجديدة في فبراير ١٨٨٢م برئاسة محمود سامي باشا البارودي، وجعلت عرابي وزير الحربية، فزاد نفوذ الحزب العسكري، وزادت رواتب الجيش وتم توسيع صفوفه بلا اكتراث بالميزانية

واقعة الأحد في الإسكندرية

نشب شجار بين رجل مالطي ومصري في الإسكندرية في ١١ يونيو ١٨٨٢م، فتصاعد النزاع بين الأهالي والأوروبيين، وبدأ الرعاع بالنهب وإطلاق النار، ما أدَّى إلى تدخل الجيش لتفريق المتجمهرين، وأسفرت الأحداث عن تهديد أمني وأثرت على موقف الدول الأوروبية تجاه الحركة العرابية، وقررت التدخل لاحقًا في مؤتمر الأستانة

التحركات العسكرية والاحتلال الإنجليزي

استعد عرابي لمواجهة الإنجليز مع تصاعد الثورة، وحاول صدهم من كفر الدوار وحماية قناة السويس، ومع وصول الأسطول الإنجليزي، هاجموا قلاع الإسكندرية في ١١ يوليو ١٨٨٢م، واستمر القصف لساعات، ثم احتلوا المدينة بعد نهبها، وحاول عرابي الوقوف في وجه الإنجليز عند التل الكبير، لكنه انهزم في معركة ١٣ سبتمبر ١٨٨٢م بسبب التفوق التنظيمي للجيش الإنجليزي، وفرَّ إلى القاهرة دون دعم من الأهالي، ودخل الإنجليز القاهرة في ٥ أكتوبر ١٨٨٢م، واستلموا القلعة وباقي الثكنات العسكرية، وبدأ الاحتلال البريطاني للقطر المصري، وسلم عرابي نفسه، وتم القبض على معظم قادة الثورة

الفصل السابع: عهد الاحتلال البريطاني

١ _ قدوم اللورد دفرين إلى مصر

دخلت مصر منذ عام (١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م) مرحلة جديدة من التدبير تحت إشراف بريطانيا، بعد إخماد ثورة عرابي، فأرسلت بريطانيا اللورد «دفرين» إلى مصر لتقديم المشورة للحكومة الخديوية في تهدئة البلاد وتثبيت عرش الخديوي، ونصح دفرين بالعفو عن الضباط الذين تقل رتبتهم عن «البكباشي» مع تجريدهم من الرتب والمعاشات، وأُقيمت محاكمات عسكرية لزعيم الثورة عرابي وآخرين، حكم عليهم بالنفي المؤبد إلى جزيرة «سرنديب» بالهند. واقترح دفرين إلغاء المراقبة المالية الثنائية بين مصر وفرنسا، فأيدت الحكومة الإنجليزية رأيه، وأُلغي المراقب الفرنسي في يناير ١٨٨٣م، وعُين مستشار مالي إنجليزي للحكومة المصرية، كما اهتم دفرين بإنشاء جيش مصري جديد على رأسه قائد إنجليزي «السير إفلن وود» وتنظيم الشرطة بتعيين «الجنرال بيكر» تحت وزارة الداخلية، واقترح أيضًا إنشاء هيئات نيابية لتدريب البلاد على الحكومة النيابية، لكنها لم تُنفذ بالكامل بسبب عدم تأهل البلاد لذلك، وكانت بريطانيا تهدف للجلاء بعد

ترسيخ الإصلاحات، لكن مشكلات السودان والعراقيل الداخلية أجبرتها على البقاء لفترة أطول. ووصل بعد دفرين السير «إقلين بيرنج» في سبتمبر ١٨٨٣م ليواصل تنفيذ خطة الإصلاح، فشملت الجيش والشرطة والتعليم والمحاكم والري ومسح الأراضي وتخفيض الضرائب

٢ _ حروب السودان

استولى محمد علي على السودان سنة ١٢٣٥هـ / ١٨٢٠م، لكن سلطته لم تتوطد، وظل الباشوات الترك وجباة الضرائب يسيطرون على الأمور بطريقة استغلالية، حاول الجنرال الإنجليزي غردون إقامة النظام في المقاطعات الاستوائية سنة ١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م، إلَّا أنَّه غادر سنة ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م، وعاد ظلم الجباة القديم مع نشوب ثورات متفرقة، وظهر محمد أحمد في السودان عام ١٣٥٩هـ/ ١٨٤٣م، وادَّعى كونه «المهدي المنتظر» سنة ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م، فانتشرت دعوته، وعند محاولة الحكومة المصرية القبض عليه، قتل أتباعه رءوف باشا، وبدأت الثورة تتوسع، وسيطر المهدي على مدينة «الأبيض» سنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م، فأرسلت الحكومة المصرية الضباط الإنجليزي ضمن الجيش المصري لإنقاذ السودان، لكن الحملة بقيادة هكس باشا فشلت بسبب سوء التدريب ونقص الأموال ووسائل النقل، وتم القضاء على معظم الجيش

إخلاء السودان

نصحت بريطانيا الحكومة المصرية بإخلاء السودان إلى وادي حلفا مؤقتًا، فرفض شريف باشا ثم وافق نوبار باشا على سلخه عن مصر، وأُرسل غردون باشا ليقود عملية الجلاء، إلَّا أنَّه أهمل التنفيذ وطلب دعمًا عسكريًا لمواجهة المهدي، غير أن الدعم لم يُرسل، فتوسع نفوذ المهدي حتى وصل إلى الخرطوم، وقطع خط الرجعة عن غردون

حملة إنقاذ غردون

أرسلت بريطانيا حملة بقيادة اللورد ولسلي، ولكن في أثناء وصولها سيطر الدراويش على الخرطوم وقتلوا غردون في ٩ ربيع الآخر ١٣٠٢هـ/ ٢٦ يناير ١٨٨٥م، بسبب خيانة فرج باشا قائد الحصون، وحاولت الحملة الإنجليزية استعادة المدينة، لكنها تراجعت لالتزامات أخرى، فتم إخلاء دنقلة ووادي حلفا بوصفها حدود نهائية لمصر

بعد وفاة المهدي في ٩ رمضان ١٣٠٢هـ/ ٢١ يونيو ١٨٨٥م، تولَّى عبد الله التعايشي الخلافة، لكنه هزم أمام الجيش المصري في موقعة «جنس» ٢٣ ربيع الأول ١٣٠٣هـ/ ٣٠ ديسمبر ١٨٨٥م، فأمنت مصر من غزو السودان. واستمر نفوذ المهدي في السودان، مع تنازل بعض المناطق لممالك مجاورة: كمصوع لإيطاليا، وبوغوس للحبشة، وامتلاك بريطانيا لبربرة وزيلع وأوغندا، وفرنسا لبحر الغزال والنيل الأبيض، واستمرت مصر في تقوية جيشها وصد هجمات الدراويش، حتى هدأت الأحوال في السودان الشرقي بعد حملة بحرية سنة ١٨٩١م بقيادة «السير فرنسيس غرنفل» ضد «ولد النجومي» و«عثمان دقنة»

استرجاع السودان

لم يأت عام (١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م) حتى تحسنت المالية المصرية وارتقى جيشها، فظنّت الحكومة أنَّه من السهل شن حملة على السودان لاسترجاعه، غير أن الحكومة

كانت تفضّل إدخار المال لإنشاء خزان أسوان، إلا أنَّ أحداثًا خارجية أجبرتها على العمل: تحالف الأحباش مع الدراويش وهزمت الطليان، مما دفع إيطاليا لطلب مساعدة إنجلترا لإرسال حملة إلى السودان، فاستجابت إنجلترا لتجنب تقدم فرنسا نحو أعالي النيل وللأخذ بثأر غردون، فأعدت جيشًا مصريًا وإنجليزيًا بقيادة السير هربرت كتشنر، فتحرك الجيش من وادي حلفا نحو دنقلة، وقضى على ٣٥٠٠ من الدراويش عند فرقة، رغم انتشار المرض، واستولى على دنقلة في (١٥ ربيع الآخر ١٣١٤هـ/ ٢٣ سبتمبر ١٨٩٦م)، وواصل الجيش زحفه نحو الخرطوم، واستولى على أبي حمد و«بريـر»، وتأجل الزحف عدة أشهر لإكمال الخط الحديدي. وفي (٧ شعبان ١٣١٥هـ/ ١ يناير ١٨٩٨م) التقى الأمير محمود بنحو ١٢٠٠٠ مقاتل عند النخيلة، وانتصر الجيش بسرعة، وأسر الأمير محمود وقتل ٢٠٠٠ من رجاله، وبلغ الجيش نحو ٢٢٠٠٠ مقاتل شمالي الخرطوم، والتقى بالدراويش في موقعة أم درمان في (١٥ ربيع الآخر ١٣١٦هـ/ ٢ سبتمبر ١٨٩٨م) فانهزم الدراويش هزيمة ساحقة، واستولى الجيش على الخرطوم، ورفع العلمين المصري والإنجليزي، وفرّ الخليفة التعايشي، ثم قتل في (رجب ١٣١٧هـ/ نوفمبر ١٨٩٩م)، فانقضت دولة الدراويش، وعقب ذلك هدأت أحوال السودان تحت حكم مشترك مصري - إنجليزي، وألغيت سلطة الباب العالي عليه وفق اتفاقية السودان (٦ رمضان ١٣١٦هـ/ ١٩ يناير ١٨٩٩م)

تقدم مصر منذ عام ١٨٨٢م

نشأ التقدم العام في مصر منذ (١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م) نتيجة إصلاحات إدارية في مصالح الحكومة وأعمال عامة لتحسين الري وزيادة الثروة، فركزت الحكومة على تحسين حال الفلاحين، بخفض ضريبة الأرض وإلغاء بعض الضرائب مثل الملح، وإنهاء السخرة، ورفع كفاءة الإدارة المالية، بما يساعد على الوفاء بالديون المستحقة وفق قانون التصفية، وساعدت إنجلترا مصر في الحصول على قرض عام ١٨٨٥م قدره ٩٠٠٠٠٠٠ جنية لضبط الميزانية وتحسين الأشغال العامة، ومنها سد العجز في الميزانية وتعويض خسائر الثورة العرابية، وتحسين الري

الأشغال العامة

اهتمت الحكومة بإصلاح القناطر والترع، ولاسيما القناطر الخيرية، التي كانت متضررة بعد إهمال طويل، وتم إصلاح أساسها وبناء أحجار حماية حولها، فأصلحت قناطر البحيرة والمنوفية والتوفيقي وأعيدت تغذيتها بالمياه، وتم إنشاء مصارف وقنوات جديدة لزيادة مساحة الأراضي المزروعة، وتم العمل على تحويل الري بالحياض إلى ري دوري في أسيوط والمنية وبني سويف والجيزة، مع توسعة ترعة الإبراهيمية وإنشاء قناطر بأسيوط لحجز المياه، مما ساعد على زيادة محصول القطن وغيره من المحاصيل، وتم البدء في إنشاء خزان أسوان في (١٨٩٨م) وانتهى العمل فيه سنة (١٩٠٢م)، بطول ٢١٥٦م وارتفاعه ٢٨م، بسعة خزن كبيرة، ساعد على تنظيم الري ومواجهة انخفاض النيل، وأدَّى إلى زيادة الأراضي المزروعة واستقرار الزراعة في مصر الوسطى، وجرى تعديل كثير من الترع وإنشاء مصارف جنوبية، والتخطيط لإنشاء خزان آخر على النيل الأبيض، لتأمين

المياه وقت الفيضان وحفظها للري المستمر. وكانت هناك إصلاحات حكومية أخرى، من أهمها: إعادة تنظيم المحاكم الأهلية وفق قانون أهلي شبيه بالقانون الفرنسي، مع إشراف مستشار قضائي وتخريج قضاة أكفاء، ما أسهم في تسهيل التقاضي وضبط العدالة. وضبطت الإيرادات المالية والمصروفات، وحدّت الضرائب، وزادت مواعيد التحصيل بما يتناسب مع قدرة الفلاحين. وتوسعت الطرق الزراعية إلى نحو ٢٥٠٠ كلم، وانتشرت السكك الحديدية الضيقة في الوجهين البحري والقبلي، وأنشئت خطوط ترام في القاهرة والإسكندرية. وأقيمت مبانٍ فخمة مثل قصر المحكمة المختلطة الكبرى بالإسكندرية ودار العاديات بالقاهرة. وانتشرت المستشفيات والمدارس، وأعيد إرسال البعثات العلمية إلى أوروبا لاكتساب المعارف الحديثة، ويمكن القول بإيجاز أنَّ مصر شهدت نهضة شاملة منذ عام ١٨٨٢م في جميع جوانب الإدارة العامة، والمالية، والأشغال العامة، والعدالة، والصحة، والتعليم، مما مهد الطريق لتقدم مستمر في البلاد

من الصحافة إلى القصيدة... التحوّل الفني في تجربة عمر الجاوي

د.عباس الزامكي
اكاديمي في جامعة عدن، باحث مقيم في مؤسسة اليوم الثامن للإعلام والدراسات، مدير تحرير مجلة بريم

تتناول هذه الورقة التحليلية البعد الفني والجمالي في تجربة عمر الجاوي الشعرية من خلال ديوانه «صمت الأصابع»، في محاولة لإعادة اكتشاف الشاعر الذي غيّبه حضوره السياسي والنضالي الطاغي. يرى الباحث الدكتور عباس حسن الزامكي أن الجاوي لم يكن مجرّد مناضل أو مفكر وطني، بل شاعرًا مبدعًا عبّر عن وجدان وطنٍ مثخن بالأسئلة والخيبات، مستخدمًا لغة تتأرجح بين الرمز والتصريح، وبين الغنائية والتأمل

يرتكز البحث على قراءة فنية تحليلية تنطلق من محاور ثلاثة: المعجم الشعري، الصورة الفنية، والموسيقى الداخلية للنص. ويكشف من خلالها كيف تحوّلت القصيدة عند الجاوي إلى وثيقة وجدانية تُجسّد علاقة الإنسان بالوطن والحلم، وتعبّر عن التوتر الدائم بين الحرية والخذلان، وبين الأمل والانكسار

ويبرز الباحث الدور الذي لعبه الوعي الوطني في تشكيل البنية الجمالية للنص، إذ تداخل السياسي بالوجداني، وتحول الخطاب الشعري إلى مساحة للمقاومة الفكرية والإنسانية معًا

كما يقف البحث على تحولات الأسلوب والصورة والإيقاع في شعر الجاوي، موضحًا كيف انتقل من الشعر الحماسي المباشر إلى شعرٍ تأمليٍّ ناضجٍ يستبطن التجربة ويحوّلها إلى رؤية إنسانية كونية

ويخلص الباحث إلى أن ديوان «صمت الأصابع» يشكّل ذروة النضج الفني في مسيرة الجاوي، إذ عبّر فيه عن موقفه الوجودي والفكري تجاه الوطن، بلغة متوترة مشحونة

بالعاطفة والرمز، لتصبح القصيدة عنده صوتًا للمثقف المقاوم في وجه القمع والنسيان

تؤكد الورقة أن تجربة عمر الجاوي الشعرية ليست فصلًا عابرًا في مسيرته، بل هي جوهر مشروعه الثقافي والوطني؛ فالكلمة عنده كانت شكلًا آخر من أشكال النضال، والشعر نافذة ظلّت مفتوحة على الحلم، رغم أن الأصابع صمتت

تمهيد

يُعدّ عمر الجاوي من أبرز الشخصيات اليمنية التي جمعت بين الفكر والسياسة والأدب، فهو المثقف الذي حمل مشروع التنوير بالكلمة، والمناضل الذي آمن أن الوطن يُبنى بالوعي لا بالهتاف. ورغم أن سيرته الفكرية والسياسية حظيت باهتمام واسع، إلا أن صوته الشعري ظلّ أقل حضورًا في المشهد النقدي، وكأنّ الجاوي الشاعر ظلّ حبيس ظلّ الجاوي المناضل

ديوانه «صمت الأصابع» هو التجربة التي تكشف الوجه الإنساني العميق لعمر الجاوي، حيث تتجلّى فيه الذات الشاعرة وهي تواجه واقعًا مليئًا بالخذلان، وتبحث عن معنى الخلاص من خلال الكلمة. في هذه القصائد، لا يتحدث الجاوي بلسان الحزب أو الحركة، بل بلسان الإنسان اليمني الذي حمل جراح وطنه في قلبه وكتبها شعرًا

فالقصيدة عنده ليست ترفًا لغويًا، بل وثيقة وجدانية تسجّل صراع الإنسان مع القهر، وحنينه الدائم إلى الحرية والكرامة

يأتي هذا البحث ليعيد قراءة الجاوي شاعرًا، لا بوصفه حالة سياسية تكتب شعرًا، بل باعتباره صوتًا فنيًا أصيلاً ينتمي إلى تيار الوعي الوطني والجمالي في آنٍ واحد. من خلال تحليل بنية الصورة، والموسيقى، واللغة، يسعى الباحث إلى الكشف عن كيفية تحوّل الشعر لدى الجاوي إلى مساحة مقاومة داخل اللغة نفسها، وإلى فهم العلاقة التي أقامها بين الكلمة والفعل، بين القصيدة والموقف، بين الصمت والأصابع التي لا تكفّ عن الكتابة

تقديم:

عُرِفَ الأستاذ عمر الجاوي – عليه رحمة الله - في الوسط الثقافي والأدبي والإعلامي بوصفه النموذج المثال للمناضل السياسي والوطني الشجاع، والكاتب الجريء الذي لا يُشقُّ له غبار، والمؤلف المثقف الذي كتب في اتجاهات الفكر المختلفة من أدبٍ وسياسة وقضايا وطنية ونقابية وغيرها من الكتابات التي لا حصر لها. ولا شكّ أن هذا الجانب من حياة الراحل الكبير عمر الجاوي – رحمه الله - معروف عند العامّي قبل المثقف

لذلك فإننا سنتناول في هذه الدراسة جانب آخر من شخصية الجاوي لنكشف من خلاله عن (عمر الجاوي الشاعر) هذا الجانب الذي لم يكن معروفا للجميع، وبقي محصورا في قلّة ممن عاصروه، وربما يكون (للجاوي الكاتب والسياسي) الذي طغى على (الجاوي الشاعر) إضافة إلى عوامل أخرى لا نعلمها دور في إخفاء هذا الجانب من حياة الجاوي.

وعلى الرغم من ذلك فقد تمكَّن (الجاوي الشاعر) من التملُّص من هيمنة (الجاوي الكاتب والسياسي) فقام بنشر بعض قصائده في عدد من الصحف والمجلات ولكن تحت اسم مستعار هو (ذو نواس)

وذلك ما صعّب عليَّ القيام بالدراسة بدايةً، فحينما طلب مني الأستاذ/ محمد عبدالرحمن دراسة شعر الراحل الكبير عمر الجاوي وعزمت على ذلك ذهبت أتقصى سيرة الجاوي الشاعر في عدد من المصادر والمراجع والمواقع الالكترونية، ولم أجد سوى قليل من الإشارات التي لا تُعين على دراسة شعر الجاوي. ولكنني اهتديت إلى أن هناك ديوان شعر للأستاذ عمر الجاوي تمكَّن الأستاذ منصور الأغبري من الحصول عليه بعد لأي ومشقة وزودنا به، فكان له الفضل بعد الله في خروج هذه الدراسة المتواضعة للنور

صمت الأصابع

هذا هو عنوان الديوان اليتيم للأستاذ الشاعر عمر الجاوي - وسوف نُرجئ الحديث عن الانزياح المجازي ودلالة العنوان إلى العدد القادم حيث سنقدم قراءة مستقلة للنص الذي أعطى للديوان اسمه وهو (صمت الأصابع) - والديوان يقع في (١٢٣) صفحة من الحجم المتوسط، ويحوي (٢٨) نصاً شعرياً منها (٢٥) نصاً ذُيّلت بالتاريخ أو العام الذي كُتبتْ فيه، بينما خلتْ (٣) نصوص من هذا التذييل الذي يُشير إلى عام كتابتها

أقدم هذه النصوص هو (خواطر عُكفة) (٢) ويعود للعام ١٩٥٥م، وما بين الأعوام ١٩٦١ - ١٩٦٤م نظم الجاوي (١٥) نصاً، ثم جاءتْ (٧) نصوص مذيلة بالعام ١٩٧٤م

والسؤال هنا أين نتاج عقد كامل من الزمن بين الأعوام ١٩٦٤م - ١٩٧٤م من شعر الأستاذ عمر الجاوي؟

لعلّ الإجابة على هذا السؤال تكمن فيما أشار إليه جامع الديوان في قوله: إن هذا الديوان جُمع من (أشرطة تسجيل) بصوت الأستاذ عمر الجاوي

ونحن نُرجح هنا أن الجاوي قد اختار تلك النصوص بوصفها مجموعة واحدة متجانسة فتجاوز عن نتاج العقد الذي أشرنا إليه. ومع ذلك فنحن لا نُعِدُّ رأينا هذا قاطعا؛ فربما أن هناك تسجيلات ومخطوطات لنصوص أخرى لم نصل إليها بعد شأنها في ذلك شأن نصوص كثيرة ظل الجاوي يكتبها على مدى أكثر من أربعة عقود لم تجد طريقها للنور

وعموما فإن الديوان في مجمله يعالج الهم الوطني الذي كان يُؤرق فكر الأستاذ عمر الجاوي، لذلك فقد خصص له (٢٤) نصا شعريا، وهذا ليس غريبا على شخصية كشخصية الجاوي ودوره البارز والحيوي في العمل الوطني منذ بداية حياته حتى وفاته. ومع ذلك لم يستطع الجاوي إخفاء المشاعر الوجدانية التي انسربتْ منه في (٤) نصوص فأفصحت عن الجاوي العاشق الذي كان يحاول إخفاءه عن الآخرين.

ومما ينبغي الالتفات في سيرة حياة عمر الجاوي النضوج الشعري المُبكّر الذي واكب النضوج الوطني والسياسي وذلك ما يدلُّ عليه أقدم نص شعري (خواطر عُكفة) الذي نظمه في عام ١٩٥٥م، وهو حينها لم

يكـن قـد تجـاوز السـابعة عشرة مـن العمـر، ومـع ذلـك فقـد جـاء النـص معبرا عـن موهبـة شـعرية متفـردة، ومما يـدلُّ على ذلـك تفـرُّد الجـاوي في تنـاول شـخصية (عُكفـة)؛ فقـدم (العُكفـي) ونظـر إليـه مـن زاويـة مغايـرة للمفهـوم الـذي اسـتقر في وجـدان المجتمـع اليمنـي عنـه بوصفـه أداة البطـش والوحشـية للنظـام الإمامـي، وذلـك مـا سـنبينه فـيما سـيأتي مـن الدراسـة

ووفقـا لمنهـج الدراسـة الفنيـة؛ فإننـا سـنتناول الموضـوع مـن خلال ثلاثـة محـاور رئيسـة، هـي

أولاً: المعجـم الشـعري: وسـنقف فيـه على أهـم الميـزات التـي شـكَّلت ملامـح المعجـم الشـعري عنـد الشـاعر عمـر الجـاوي حيـث جـاءت تعتمـد على حقـلين دلالـيين، هما:

١- ألفاظ الوطن.

٢- ألفاظ الثورة.

وهـذا لا يعنـي أن نصـوص الديـوان تقـف عنـد هذيـن الحقـلين، فهنـاك حقـول دلاليـة أخـرى لكنهـا لم تُسـجل حضـورا لافتـا يرتقـي إلى مسـتوى سـابقيها

ثانيـا: الصـورة الشـعرية: مثـلما هـو حـال كل دراسـة فنيـة للصـورة الشـعرية فإننـا سـنتطرق إلى دراسـة الصـورة الاسـتعارية بشـقيها التجسـيدية والتشـخيصية، إضافـة إلى الصـورة التشـبيهية والصـورة الكنائيـة

ثالثـاً: الموسـيقا: سـنعمل في هـذه الجزئيـة مـن الدراسـة على إبـراز الموسـيقا الشـعرية التـي تعتمـد على (التفعيلـة) إضافـة إلى التـوازي والتكـرار التركيبـي والتكـرار الصـوتي بوصفـهما أهـم عنـاصر موسـيقا الشـعر الحـداثي

أولاً: المعجم الشعري

تنـاول النقـاد – قديمـا وحديثـا - مفهـوم المعجـم الشـعري، ولسـنا هنـا بصـدد الحديـث عـن مفهومـة لغـة أو اصطلاحـا، ولكننـا سـنتناول المعجـم الشـعري بوصفـه (... بنيـة لغويـة تتعانـق فيـه مكونـات اللغـة مـن حـرف، وكلمـة، وجملـة، وصـورة، فهـو بذلـك بنيـة لغويـة جماليـة تتـأتى جماليتـه مـن كيفيـة اسـتخدام الشـاعر لهـذه المكونـات بجانـب كل المحمـولات الأخلاقيـة أو الاجتماعيـة أو السياسـية أو سـواها)(٢).

ورغـم إن الكلمـة أهـم مكونـات المعجـم الشـعري إلا إنهـا تظـل مجموعـة أصـوات لا قيمـة لهـا حـال كونهـا منفـردة، فهـي حينئـذٍ خاليـة مـن المضمـون الـدلالي، لأنهـا تسـتمد مكانتهـا مـن العلاقـات الدلاليـة التـي تربطهـا بالجملـة والسـياق والمعنـى الـذي تحملـه، ومـن هنـا اكتسـبت الكلمـة أهميتهـا في اللغـة عمومـا وفي البنـاء الشـعري على وجـه الخصـوص. ووفقـا لذلـك فـإن كل شـاعر (... متفـرد ببنائـه الخـاص بمـا ينتقيـه مـن ألفـاظ ... ويتحـدد حـظ الشـاعر مـن الفن والشـاعرية بقـدر مـا يملكـه مـن براعـة في اسـتغلال الـكلمات ... وهنـا نتـبين أهميـة المعجـم الشـعري، أو العنـاصر الأساسـية التـي يُشـكّل منهـا الشـاعر قصائـده ومقطوعاتـه)(٤). فتغـدو تلـك الألفـاظ سـمة أسـلوبية في شـعره يـنماز بهـا عـن غيره مـن الشـعراء، فيمثـل معجمـه الشـعري العـالم اللغـوي الخـاص بـه ويكشـف عـن ثقافتـه وخلاصـة تجربتـه

وتأسيسا على ما تقدم في شأن المعجم الشعري وما ذكرنا آنفا عند حديثنا عن الديوان موضوع الدراسة من حيث عناية الأستاذ عمر الجاوي – رحمه الله – بالهم الوطني والسياسي والثوري؛ فإن ذلك يُفصح لنا - ولو قليلا - عن نوع المعجم الشعري الذي يتكئ عليه الجاوي في بناء تجربته الشعرية، وذلك ما جعلنا نتقصى ألفاظ الوطن والثورة في الديوان، وخرجنا بالآتي:

١- ألفاظ الوطن:

المُعجم الوطني فرع من المُعجم الشعري يعتمد عليه الشعراء في خطاباتهم الشعرية، حيث تُمثل لفظة الوطن المصدر الرئيس الذي يستمدون منه لغتهم الشعرية فالوطنية بما تعنيه من مشاعر حب الوطن والارتباط به روحياً جعلت الشعراء يميلون الى التغني بالوطن وتمجيده (... فحالة الفخر والاعتزاز بالوطن تمثل وَثَاقة الانتماء الذي يقود إلى مشاعر أخرى من التعلق والحب وحالات من الهيام والحنين ... لذا فالمعجم الوطني قائم على الحرية والديمقراطية والتحرر ومقاومة الارهاب ورفض للقيود والفساد في البلاد).(٥)

ومثل هذه القيم وتلك الحالات من الحب والهيام بالوطن هي من السمات الأصيلة التي لازمت شاعرنا منذ بواكير شبابه حتى وفاته، لذلك فإنك لن تجد قصيدة من قصائد الديوان إلا وقد توشحت وتزينت بألفاظ مثل: (الوطن/وطني/اليمن) عموما، أو ذكر للمدن (صنعاء/عدن/ تعز/ مأرب/تبن/شمسان) وغيرها.

وقد وظف الجاوي بعض تلك اللفاظ في التعبير عن حلمه في تحقيق الوحدة التي تمتد خيراتها لتعمّ الوطن شمالا وجنوبا وذلك ما يُلمح إليه تكرار لفظ (السد) في النص؛ فالوطن لن يغدو فقيرا (ظمآن)؛ ففيه من الثروات والخصب والنّماء ما يُغنيه أن يستجدي الآخرين، وذلك ما يُبيّنه قوله:(٦)

وحُلمي يا سدَّ الغد
من مأرب حتّى شمسان
حُلم سدٍّ يمتد
والنجم على أبواب عدن
أو باجل أو نجران
ينهلُ
لن يغدو ظمآن
يستجدي ماءً
من كل الأوطان
فهنا ماءٌ ووطن
وهنا غُصنٌ وفنن
شعبٌ ويمن.

وفي نصٍّ آخر يرى الجاوي استحالة الفصل بين الأوطان وتاريخها، فكيف إذا كان هذا التاريخ يرتبط بالأنفة والكبرياء والكرامة التي ظلَّ وما زال اليمني يضحي في سبيل الحفاظ عليها بروحه بقوة وعزيمة (فولاذية)، وذلك ما يشهد به التاريخ قديما وحديثا، فيقول:(٧)

في اليمنِ
بين الجبهةِ والأنف السبئي
أرقنا أغلى الثمنِ
وركبنا موجة حُزنٍ من صنعاءَ
وفولاذا غذينا التربة في تُبَنِ.

لذلك يرى الجاوي إنه من العار على اليمني الاتكال على ما يجود به عليه الآخرين من فتات نتن، فيُوصي أبناء اليمن بالاستعداد للحرب وأن يلبسوا دروع الحرب (البَدَن)، واليمني إذا عزم على القتال فإن الأكفان تُقيم الأفراح في كناية عن الجسارة وكثرة القتلى، ومع ما يحمله هذا الخيار من قسوة وألم إلا إنه أهون عليه من ذلّ الفاقة والحاجة للآخرين، وذلك ما يُشير إليه في قوله:(٨)

في اليمنِ
أوصيكم بالبَدنِ(٩)
فلنَدعْ فُتات الجيران النَّتنِ
ونصنعُ أفراحا للكفنِ.

وقبل أن ننتقل إلى محور آخر من محاور المعجم الشعري نود التأكيد أن ذكر ألفاظ الوطن وما يتعلق بها لا يقف عند هذين الشاهدين، بل نجده مبثوثا في كثير من نصوص الديوان حيث كرر الجاوي ألفاظ الوطن في (١١٦) موضعا من الديوان، حازت لفظة الوطن على (٣٤) موضعا من الديوان، بينما كرر لفظ اليمن في (٢٥) موضعا من الديوان، وتلاهما ذكر صنعاء وعدن وغيرهما في (٢٠) موضعا تقريبا، وتكرار هذه الألفاظ في معجم الجاوي الشعري يؤكد بما لا يدع مجال للشك أن الهم الوطني كان مسيطرا على تفكيره، ومن هنا فقد حفل الديوان بهذه الألفاظ بوصفها من ألصق خواص الجاوي ومعجمه الشعري

٢- الفاظ الثورة:

لا يبتعد المعجم الشعري الثوري في خصائصه كثيرا عن المعجم الوطني؛ فيكاد أن يلتصق به ويأتي رديفا له عند الأستاذ عمر الجاوي في كثير من المواضع التي وقفنا عليها في الديوان، ولهذا الارتباط دلالته الفنية والتصويرية، ومن ذلك جمعه إلى جانب ألفاظ الثورة مثل: (ثارت/ يُزمجرُ/ شعبي المناضل/ يدوس) ألفاظ الوطن (اليمن/ صنعاء/ حضرموت/ الحديدة/ حجة) حيث وظَّف الجاوي تلك الألفاظ في التعبير عن بهجته بثورة (سبتمبر) في هذا النص الذي نظمه في (٢٨ سبتمبر ١٩٦٢م) فالشعب ثار وصنعاء ثارت (وكفَّنتْ عارها وداس الثوار (لِحَى) الطغاة (الصُّفر العنيدة) وسوف يستعيد الشعب حريته من (أعالي حضرموت إلى الحديدة) ولن يعيد (سجَّان حجة) - الذي يُرمز به هنا إلى النظام الإمامي - القيود وقد ولى مدحورا إلى خلف الحدود، والجميل أن الشاعر كتب النص وهو طالب في موسكو ومع ذلك لم ينسَ دور مصر وفرحة الشعب المصري بهذا المنجز العظيم، وذلك ما يُبيّنه قوله:(١٠)

صنعاء ثارتْ حطَّمتْ عبء الليالي والدهور
صنعاء كفَّنتْ عارها
فلتسألوا قصر البشائر
.....
فلتنظروا شعبي
يدوس لحاهم الصُّفر العنيدة
ونشيده الداوي
يُزمجرُ عبر صنعاء الوليدة
سنعيدها اليمن السعيدة
.....
من أعالي حضرموت إلى الحديدة

سنعيدها اليمن السعيدة
صنعاء ثارتْ حطَّمتْ ثقل القيود
صنعاء لن تستبدلَ الجلاد
بالذئب الحقود
سجَّان حجة لن يُعيدَ القيدَ
من خلف الحدود
.....
وصوت أسوان البعيدة
يهفو إلى شعبي المناضل
هاتفا: تحيا السعيدة.

أشرنا فيما تقدم إلى تفرُّد الجاوي في تناول شخصية (عُكفة)؛ فقدم (العُكفي) ونظر إليه من زاوية مغايرة فلم يَنظر إليه بوصفه أداة البطش للنظام الإمامي فهو مغلوب على أمره، بل إنه يسعى إلى التحرر، ويساند الثوار ليُشعلوا في صنعاء النار ويثور مع الشعب على الطاغية، حيث يقول الجاوي على لسان العُكفي:(١١)

سأغني أغنية ثورية
أعرفها كانت حلماً للثوار
تخنق أنفاس القصر المنهار
.....
تُشعلُ في صنعاءَ النَّار
تُرضعها الشمسُ بهاءً
تكسوها الأقمار
للشعب المجدُ
وللطاغية العار.

ثانيا: الصورة الشعرية

الصورة الشعرية من ألزم خواص شعر التفعيلة حيث يعمد الشعراء إلى (التكثيف والابتكار) أي الاعتماد على تكثيف الصور الشعرية إضافة إلى التجديد والابتكار في تركيبها، ولعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا إن شعراء الحداثة قد التزموا هذه التقنية الفنية للتعويض عن غياب الوزن والقافية، وهم في ذلك على صنفين، الأول: أكثر من تكثيف الصورة مع قلة الابتكار والجِدَّة فجاء شعرهم باهتا لا يرقَ إلى أدنى مستويات الشاعرية، والصنف الثاني: كان أكثر حذقا ومهارة في الإفادة من هذا الأسلوب الفني فجاء شعرهم راقيا متمكنا، يُحلّق معه المتلقي في سماء النص ممتطيا جمال الصورة والموسيقا الداخلية وروعة التراكيب، فلا يشعر كثيرا بغياب الوزن والقافية. وذلك ما وجدناه عند شاعرنا الأستاذ عمر الجاوي

١- الصورة الاستعارية:

الصورة الاستعارية من أهم أدوات تشكيل الصورة الشعرية حضورا في الشعر العربي لأثرها الجمالي وقدرتها على بثّ الحياة في الجمادات، بل إنها قد تجاوزت ذلك لِتبثَّ الحياة في (المعدوم مادياً) من خلال خاصيتي التشخيص والتجسيد، وذلك ما ذكره الإمام عبدالقاهر الجرجاني واصفاً لها ومبيناً قيمتها الجمالية، حيث يقول: (... فإنّك لترى بها الجماد حيّاً ناطقاً، والأعجم فصيحاً، والأجسام الخُرسَ مُبينةً، والمعاني الخفيَّة باديةً جليّةً ... وإن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنّها قد جُسّمتْ حتّى رأتها العيون، وإن شئتَ لطَّفتِ الأوصاف الجسمانيِّة حتّى تعود رُوحانية لا تنالها إلاّ الظنون).(١٢)

والصورة الاستعارية في شعر الجاوي (سهلة صعبة)، حيث يسهُل الوقوف عليها

في أي نص من الديوان، إلا إن صعوبة تحليلها تجعل الناقد يقف أمامها طويلا ليفهم مُراد الشاعر منها ودلالتها التصويرية لما فيها من رؤى وأفكار عميقة

ويمكننا الوقوف على عمق الفكر في الصورة الشعرية عند الأستاذ عمر الجاوي من خلال هذه المقطوعة التي جمع فيها بين الصورة التجسيدية والتشخيصية، ومن ذلك الصورة التشخيصية في قوله: (جبالنا الحزينة / طفلك الوليد يا مدينة / لن ينحني شمسان) حيث أضفى الجاوي على الجمادات (جبالنا / المدينة / شمسان) صفات إنسانية، فصوّر في الأولى الجبال بأنها (حزينة) ليُبيِّن من خلال هذه الصورة عمق المأساة والحزن الذي أصاب الجبال مع صلابتها وشموخها، ومع ذلك فقد حُقَّ للجبال أن تحزن؛ فهي مكبلة (بالقيود والنيران) في إشارة إلى القهر والإذلال الذي وقع على الوطن وأهله من قوات (الاحتلال البريطاني)، فهي مكبلة والنيران تحيط بها من كل جانب، وفي الصورة الثانية شخّص الشاعر المدينة (عدن) بأم فقدت (وليدها) وقد رمز الجاوي بالوليد هنا إلى الأمل الجديد والفكر التحرري الذي نشأ في عدن في تلك الحقبة، وما يُؤسف له إن هذا الوليد قد وُأد في مهده، وذلك ما يجعل فُقده مأساويا ومؤلما، ومع ذلك فإن الجاوي يعرف (مدينته عدن) فهي لن تخضع وتستكين أمام هذا القهر والبطش، وذلك ما تُصوره الاستعارة التشخيصية في قوله: (لن ينحني شمسان) حيث وهب جبل (شمسان) صفة الإنسان الشامخ الذي لا ينحني، في صورة لعدن وأبنائها وشموخهم وعزتهم وقدرتهم على الصمود والمقاومة

وعلى نفس النسق من العمق والابتكار تأتي الصورة التجسيدية عند الجاوي، وذلك ما نجده في قوله: (وأغرقَ النسيان / ولن يهزَّ كتفُه الزمن)، حيث صور (النسيان) في صورة كائن قادر على الفعل فهو يمتلك قوة تدمير تحاكي قوة الفيضان وذلك ما يدل عليه الفعل (وأغرقَ)، والصورة التجسيدية في مجملها (أغرق النسيان) توحي بعمق المأساة بفقد وخسارة الأمل الجديد. ومع ذلك فإن الجاوي يرى إنه (لن يهزَّ كتفُه الزمن) غير مبالٍ لعدن وأهلها فلا بدَّ أن يأتي اليوم الذي تنضج فيه التجربة الثورية وتحقق أهدافها

وإضافة إلى ذلك يمكننا الوقوف على المجاز العقلي في دلالة النداء في قول الشاعر: (يا عالمي / يا عالمَ الأحزان)، هنا يُسقط الجاوي شعوره بالحزن والألم على عالمه، وذلك ما يجعل النداء يحمل بُعداً وجدانياً يومئ إلى التشاؤم والشعور بالخذلان، فتتساوق دلالة النداء مع دلالة المقطوعة الشعرية.

وقريب من ذلك نجد إن المجاز العقلي في نداء المدينة (يا مدينة) بصيغة الخطاب - بوصفها تُشير دلاليا للوطن - يُضفي على الخطاب شعورا بالحميمية مغلفة بالحزن لما أصابها، ويمكننا الوقوف على هذه الصور في قول الجاوي:(١٣)

يا عالمي
يا عالمَ الأحزان
لكم تُصفِدُ القيود والنيران
جبالنا الحزينة

وأغرقَ النسيان
طفلك الوليد يا مدينة
لن ينحني شمسان
ولن يهزَّ كتفُه الزمن
وينتهي ما كان
أعرفها مدينتي عدن

كنت قد أعددت أكثر من أنموذج من الديوان لدراسة الصورة الاستعارية وتناولها بالنقد ولتحليل الأدبي، ولكن عمق الرؤية عند الشاعر وما يحتاج إليه من التوسع في عرض الصورة الشعرية وتحليلها، إضافة إلى الحيِّز المتاح لنا في المجلة قد اجبراني على الاكتفاء بما تقدم وتأجيل ذلك ليكون في الدراسة الفنية التي ستتقدم الطبعة الجديدة للديوان إن تيسّر لنا ذلك بإذن الله تعالى.

٢- الصورة التشبيهية:

الصورة التشبيهية من أساليب البيان التي افتتن بها الشعراء، ومثلما كان لها حضور كبير في شعر العمود قديما وحديثا؛ فقد كان لها حضور مؤثر في الشعر العربي الحديث بوصفها من الوسائل البلاغية التي يستعين بها الشاعر لِيُظهر المعاني في صور محسوسة؛ فتُضفي على الشعر جمالا ذو تأثير في نفس المتلقي.

وقد اتفق علماء البلاغة على فخامة التشبيه، وعظيم قدره عند العرب في كلامهم عموما وفي شعرهم خصوصا، وللتشبيه فضلاً عن أهميته وشرفه فوائد (... فهو يزيد المعنى وضوحاً ويُكْسبُه تأكيداً؛ وهذا ما أطبق جميعُ المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستَغْنِ أحدٌ منهم عنه. وقد جاء عن القدماء من كل جيل ما يُستدل به على شرفه وفضله وموقعه من البلاغة بكلِّ لسان).(١٤)

ومع أن التشبيه يتسم بوضوح التركيب إلا إن بلاغته تكمن في (... طرافته وبُعد مرماه في كونه ينتقل بالسامع من شيء مألوف إلى شيء طريف يشابهه، أو صورة بارعة تماثله، وكلما كان هذا الانتقال بعيد المنال قليل الخطور بالبال كان التشبيه أروع وأدعى إلى إعجاب النفس به).(١٥)

وقد جمع الجاوي – عليه رحمة الله – في استخدامه للصورة التشبيهية بين البراعة والطرافة في مواضع كثيرة من الديوان، ومن ذلك قوله في واحدة من رباعياته:(١٦)

في أصبعي خاتم نعشٍ جميل
يلمع كالنجمةِ كالمستحيل
قالوا أصبتَ الرأي مهما بدا
في عُرفِكَ النعشُ كئيبا ثقيل

في رأيي إن الشاعر هنا يتحدث عن تجربة ذاتية ولعلها تجربة حب فاشلة انتهت قهرا قبل أن يسعد الشاعر فيها بوصال من أحب، وذلك ما يُلمح إليه ذكر (الخاتم) بوصفه رمزا للارتباط العاطفي ومن ثُمَّ وصفه (بالنعش) الذي يحمل دلالة الموت، ويؤكد الشاعر فشل تلك التجربة أو ذلك الحب من خلال ذكر (النجمة) التي ترمز للضوء (الخافت) في ظلمة الليل؛ فتوحي له ببصيص أمل ولكنها مع ذلك بعيدة المنال، وذلك ما جعله يقطع الأمل ويُعبِّر عن يأسه فيُلحِقُ التشبيه الأول (كالنجمة) بتشبيه ثانٍ (كالمستحيل) الذي يدلُّ على أن هذا الحب ضرب من الخيال

اعتمد الجاوي في هذه الصورة التشبيهية على الثنائيات الضدية، حيث جمع بين (الحياة والموت) و (الأمل واليأس) من خلال (الخاتم/النعش) و (النجمة/المستحيل) في أسلوب يثير الدهشة يجعل المتلقي يقف طويلا أمام هذه الصورة ليستكنه عناصرها والعلاقة التي تربط بينها.

ومن الصور التشبيهية التي يزخر بها الديوان اخترنا هذه المقطوعة التي تصور بؤس الوطن وأهله، حيث يُشبه الجاوي الوطن بـ (حقل سنابل) و (غابات) ولكنه للأسف (دون حصاد) وغاباته ليست مصدرا للخير كغيرها من غابات العالم فهي (تزرع شوكا)، وهذه الصورة تحمل دلالة تصويرية تُبيّن حالة الفقر والبؤس مع أن الوطن يكتنز خيرات وفيرة، ومع ذلك يرى الجاوي وطنه كأنه (ينبوع في الجنة)؛ فجمع في هذا التشبيه بين العطاء المتجدد (ينبوع) وبين الجمال والخلود الذي توحي به لفظة (الجنة)، فجاءت الصورة الشعرية التشبيهية الثانية لتُمحي تشاؤمية الصورة الأولى، فيقول: (١٧)

وطني حقل سنابل دون حصاد
غابات تزرع شوكا في قد الصياد
ينبوع في الجنة
يروي غابات
النرجس حُزنه

٣- الصورة الكنائية:

تعتمد الصورة الكنائية على الغموض والإيجاز، وذلك ما يمنحها عمقا يستدعي التأمّل والتفكير، حيث يُقدم فيها الشاعر الصورة معتمدا (التلميح) بكلمات موجزة تحمل دلالات كبيرة، فالكناية هي: (... ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه، لينتقل من المذكور إلى المتروك)(١٨) هذه المزيَّة هي التي جعلت الكناية أبلغ من التصريح، وذلك ما أشار إليه الإمام الجرجاني قائلا: (... السبب في أن كان للإثبات بها - أي الكناية - مزيَّةٌ لا تكون للتصريح أنَّ كل عاقل يعلم إذا رجع إلى نفسه، أنَّ إثبات الصفة بإثبات دليلها، وإيجابها بما هو شاهد في وجودها، آكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا ساذجا غُفلاً). (١٩)

ومع هذه القيمة الفنية للصورة الكنائية إلا أن شعراء الحداثة لم يلتفتوا لها كثيراً في ابداعاتهم الشعرية، وذلك ما سيلاحظه الدارس لشعر التفعيلة، ولكنهم إذا لجأوا إليها فإنهم يضفون عليها أبعادا جمالية تخرج عن الحدود المألوفة التي نعرفها، وليس أدلّ على ذلك ما نجد عند شاعرنا الجاوي في قوله: (٢٠)

لو سقط المطر
وحطَّم الأغصان والشجر
أو غرق القمر
ومات نورها العيون
لكم يهون
يا طفلةً مزّقتْ الريح ردائها
وأشعلوا الثقاب في ضفيرتين
أوثقوا اليدين.

والمقطوعة في مجملها صورة كنائية مركبة من جزأين: الجزء الأول في (الأبيات) الخمسة الأولى حيث يرى الجاوي من خلال الصورة

الكنائيــة إن المصائــب مــهما كانــت عظيمــة فلــو زُلــزلَ الكــون وفقــدت العيــون نورهــا (حطــم، غــرق، مــات)، فــإن ذلــك لا يســاوي شــيئاً أمــام وأد الثــورة في طفولتهــا (فالطفلــة) هنــا كنايــة عــن (انتفاضــة ٣١ أكتوبــر ١٩٥٨م في عــدن). (٢١)

ومــع مــا تحملــه لفظــة (الطفلــة) مــن معــاني البراءة والــجمال والطهــر فإنهــا قــد (مُزِّقــت وأُحرِقــت وقُيّــدت) فجــاءت الصــورة الكنائيــة معبرة عــن الحــزن والألم للخســارة التــي مُنيــت بهــا الانتفاضــة، وذلــك مــا يُمثلــه الجــزء الثــاني والأهــم مــن الصــورة الكنائيــة إجمالا؛ فالصــورة الكنائيــة الأولى جــاءت ممهــدة لتــبيّن فداحــة الأمــر في الصــورة الثانيــة

تتداخــل الصــور الشــعرية في كــثير مــن قصائــد الديــوان وفي هــذه المقطوعــة يعتمــد الجــاوي على الصــورة الكنائيــة المتعــددة فالألفــاظ (الصبــح، الليــل) كنايــة عــن الحريــة وظلــم الاحــتلال البريطــاني، فيُصــور مأســاة الشــعب حينما قــال لــه المنظــرون: إن الحريــة لا تتحقــق إلا بالتضحيــات، فيرد مــن خلال الاســتعارة التجســيدية (صبحكــم الأعمــى) قــائلا: إننــا قــد قدّمنــا تضحيــات كــبيرة، ولكــن دون جــدوى لأن مفهومكــم الأعمــى للحريــة وتحقيقهــا قــاصر فمُنينــا بخســائر كــبيرة ولم نحقــق شيء، ثــم يُــغير صيغــة الخطــاب مــن خلال الاســتفهام الاســتنكاري فيقــول لهــم: (قولــوا مــا الصبــح، ومــا الليــل؟) ولكنهــم يعجــزون عــن الإجابــة؛ فيرد على الســؤال؛ فيُــبيّن لهــم مفهــوم (الصبــح/ الليــل) معتمــدا الصــورة التشــبيهية فيُشــبه الصبــح بــ (قلــب الــفلاح الدامــي) ويُشــبّه الليــل بــ (الحالــك مــن أيامــي)، ويختتــم المقطوعــة بالســخرية منهــم قــائلاً: (إن شــئتم فخذوهــا / وعليكــم ألــف سلام)، فتعاضــدت الصــور التشــبيهية والتجســيدية في النهــوض بالصــورة الكنائيــة في التعــبير عــن المآسي والتضحيــات التــي قدمهــا الشــعب في ســبيل الحريــة، فيقــول:(٢٢)

قلتم دون الصبح دماء
دمُنا سال وغطّى حتى صبحكم الأعمى
قولوا ما الصبح
وما الليل؟
سوى قلب الفلاح الدامي
والحالك من أيامي
إن شئتم فخذوها
وعليكم ألف سلامِ.

ثالثا: الموسيقا

ترتبــط موســيقا الشــعر في النقــد العــربي بدايــةً بالانســجام والتناغــم الصــوتي بين ألفــاظ اللغــة مــن خلال (الســاكن والمتحــرك) التــي اشــتملت على مفاهيــم مثــل: الــوزن، القافيــة، إضافــة إلى التصريــع والموازنــة وغيرهــا مــن العنــاصر التــي ترتبــط بجماليــة الشــعر وتميّــزه عــن الــنثر وغيره مــن الفنــون الأدبيــة.

ومــن هنــا فــإنّ مفهــوم الإيقــاع يضرب بجــذوره عميقــا في المــوروث النقــدي العــربي مــن عهــد الخليــل إلى ابــن قتيبــة وقدامــة بــن جعفــر وحــازم القرطاجنــي والجرجــاني وغيرهم، وإن كان قــد ظهــر مفهومــه الاصطلاحــي يتبلور عنــد ابــن طباطبــا العلــوي بدايــة، ثُــمّ تــجلّى بوضــوح عنــد ابــن ســينا في كتــاب (الشــفاء) الــذي ســمَّى كتابــا منــه باســم (الموسيقا).(٢٣)

أمّا عند النقاد المحدثين فقد شاع مفهوم (موسيقا الشعر) عند نقاد كُثُر كما هو الحال عند أحمد زكي أبو شادي وصلاح عبدالصبور وكمال أبو ديب وإحسان عباس وغيرهم من النقاد.(٢٤)

وعموما فإن الموسيقا من ألزم خصائص الشعر العربي قديمه وحديثه، ومع ذلك فقد يتمكن الشاعر المتمُّلص من أوزان وبحور الشعر العربي كما هو الحال في شعر التفعيلة، أو الاستغناء عنها نهائيا كما في قصيدة النثر، لكنه لا يستطيع التحرر من الإيقاع الشعري لأن ذلك يعني خروج ما يكتب عن مفهوم الشعر والشاعرية، وبالتالي خروج الكاتب من دائرة الشعر كليا

وقد استعاض شعراء الحداثة عن الوزن والقافية فيما يتعلق بموسيقا شعر التفعيلة بعناصر إيقاعية تقوم بالإضافة إلى موسيقا تكرار (التفعيلة) على التكرار الصوتي واللفظي والموازنة.

وذلك ما يتجلى بوضوح عند الأستاذ الجاوي في قصائد (التفعيلة) التي اشتمل عليها الديوان، ويمكننا أن نُمثل لتلك العناصر الموسيقية من خلال هذه المقطوعة التي نظمها الجاوي على (تفعيلة) بحر المتدارك (فَعْلَنْ) = (٢٢) أو (فَعَلَنْ) = (٢١١)، حيث أفاد الجاوي من الزمن الصوتي للتفعيلة في موسيقا النص حيث نجد الموازنة بين الأشطر في قوله: (يا خالق آدم = فَعْلَنْ فَعْلَنْ فَعْ) وقوله في الشطر الثاني (أرزقني حربا = فَعْلَنْ فَعْلَنْ فَعْ)، وكذلك يمكننا القول عن (ارزقني سداً يتهدم) و (في سبأ طيرٌ أبكم) وغيرها كثير في القصيدة خصوصا وفي الديوان عموما، وإضافة إلى ذلك فقد كان لتكرار التوازي اللفظي أثره في تشكيل موسيقا المقطوعة حيث أسهمت الألفاظ (يتهدّم/ أبكم) (العودة/ الموؤدة) في إضفاء بعدا نغميا على المقطوعة شبيه بالقافية

ولا يمكننا هنا إغفال التكرار الصوتي وبُعده الدلالي الذي برز في تكرار حروف القلقلة (ق، ط، ب، ج، د) حيث جاء التكرار الصوتي لهذه الحروف في (٢٧) موضعا من المقطوعة، وتكرار هذه الحروف يشير إلى حالة القلق التي يعانيها الشاعر، وهو فعلا ما أراده الجاوي في هذه القصيدة؛ فهو يُفصح عن حالة التذمر التي يعانيها نتيجة للوضع المأساوي الذي كان يعيشه اليمن عموما، لذلك فهو يسأل الله أن يرزقه حربا (ثورة) على الوضع القائم – في زمنه – ليتحقق من خلالها مستقبل أفضل للأجيال القادمة (الأحفاد). **ونحن هنا نسأل الله أن يُحقق نبوءة الأستاذ عمر الجاوي – عليه رحمة الله - فتكون هذه الحرب التي نعاني منها قرابة عقد من الزمن هي الحرب المخلّصة التي تنبأ بها وتمناها، في قوله:(٢٥)**

يا خالق آدم (فَعْلَنْ فَعْلَنْ فَعْ)
أرزقني حربا (فَعْلَنْ فَعْلَنْ فَعْ)
يلقى منها الأحفاد (فَعْلَنْ فَعْلَنْ فَ) (تدوير)
رذاذ الزند الملوية(٢٦) (عَلَنْ فَعْلَنْ فَعْلَنْ فَعْلَنْ)
ارزقني سداً يتهدم
إن صال على صهوته فأر
أو غرد في سبأ طير أبكم

هب لي أجداداً أحياءً
يخُطُّون طريق العودة
يبنون على ظهر (المندب)
جسرا للريح وللأمطار
لحبات العرق
ولليمن الموؤدة

ويمكننا الوقوف على التكرار اللفظي والتوازي بوضوح من خلال مقطوعة أخرى حيث اعتمد الجاوي على تكرار الجملة الفعلية (طابت) في ستة مواضع فأسهم التكرار اللفظي في إبراز الموسيقا الشعرية الداخلية في المقطوعة، كما كان للتوازي بين الألفاظ (الأسيانة/ الجوعانة/ مرجانة/ العريانة) أثرا واضحا في التشكيل الموسيقي حيث قام التوازي المتكرر مقام الموسيقا الخارجية (القافية جوازا)، وذلك ما نجده في قوله: (٢٨)

طابتْ في هذا المخدع
لُقيا الأيدي الأسيانة
طابتْ حتى أجفان الشبق العاري
والزهر المتورد في الشّباك
وفي الأهداب الجوعانة
لم يَبقَ سوى طابت
طابتْ حتى خصلات الكأس المنظومة
بالعرق الفياض
وسهر الليل
وطابتْ مرجانة
الحقُّ أقولُ
وطابتْ حتى الكلمات
التافهة العريانة

ومما يُحسب للأستاذ الجاوي إن نتاجه الشعري لم يكن محصورا في شعر التفعيلة؛ فقد نظم (الرباعيات) التي تألفت من (١٤) رُباعيةٍ على البحور العروضية الخليلية، كما هو الحال في هذه الرباعية التي جاءت على بحر (السريع) الذي يتألف من ست تفعيلات هي: (مستفعلن مستفعلن مفعلات ×٢) وقد أضاف الشاعر في آخر تفعيلة (مفعلات) ساكن لتُصبحَ فاعلاتن، حيث يقول: (٢٨)

سأنتهي يوما بعرض الطريق
وأرقب الإنسان حتى يفيق
لأنني جربت يأس الهوى
مدامعا تلهب قلبي الرقيق

نتائج الدراسة:

كشفت الدراسة أن الاستاذ عمر الجاوي - عليه رحمة الله - يمتلك تجربة شعرية متميزة تتسامق في حداثتها وشاعريتها مع تجارب كبار شعراء الحداثة في الوطن العربي.

كان للنبوغ الفكري والوطني عند الجاوي أثر واضح في النضوج الشعري المبكر، يدلُّ على ذلك قصيدة (عُكفة) التي نظمها عام ١٩٥٥م التي استدلينا من خلالها على أمرين، الأول: تناوله المختلف لشخصية (العكفي)، والثاني: حداثة سنّه حيث كتب القصيدة وهو شاب يافع.

امتلك الجاوي بحسه الجمالي المرهف ناصية الشعر فطاوعته الصور الشعرية والأخيلة في التعبير عن مكنونات نفسه سوى في الجانب الوطني أو في صوغ التجارب الذاتية.

تميزت تجربة الاستاذ الجاوي

بقدرته على نظم الشعر بشقيه فنظم شعر التفعيلة ونظم الشعر العمودي باقتدار وذلك ما يتجلّى بوضوح لمن يدرس شعر الجاوي.

مع أن شعر الجاوي ينماز بسهولة الألفاظ والتراكيب إلا إنه عميق في رؤاه وأفكاره الأمر الذي يجعل الناقد يقف أمام النص طويلا ليعرف الفكرة التي يريد الشاعر إيصالها للمتلقي.

تبين لي من خلال القراءة المتكررة لقصائد الديوان أن هناك اختلافا كبيرا بين شعر الجاوي قبل عام ١٩٧٤م وبعده ففي حين امتلأت قصائد الديوان التي سبقت هذا العام بالتفاؤل والتحريض على انتزاع الحرية وتحقيق الحلم بقيام الدولة المدنية في شطري اليمن إلا إن القصائد (السبع) التي نظمها في عام ٧٤م قد أفصحت عن جاوي آخر، حيث وجدناه ساخطا على التجربة الوطنية في الشطرين ناقما عليها فغاب عن شعره الأمل والتفاؤل وحل محله النقد الجريء اللاذع للنظامين.

أوقعني هذا التناقص في حيرة فتساءلت هل هناك لبس في الديوان أم أن قراءتي له خاطئة. ولأنني لم أكن قد حظيت بمعرفة الاستاذ الجاوي – رحمه الله - عن قرب فقد استعنت بالدكتور هشام السقاف ليزيل اللبس الذي وقعت فيه نتيجة لهذا التناقص فسألته عن ذلك؛ فأخبرني بما كان يعانيه الجاوي نتيجة لإحساسه بعجز النظامين عن تحقيق قيم الحرية والعدالة والمساواة التي كان يؤمن بها ويحلم بتحقيقها فأفرغ خيبة أمله ومعاناته في تلك القصائد التي انتقد فيها النظامين جنوبا وشمالا وحينها تأكدت أن قراءتي للديوان والشاعر قد كانت صحيحة وموافقة لواقع الحال.

نستطيع أن نؤكد من خلال الدراسة أن هناك نصوص أخرى من شعر الجاوي لم تجد طريقها للنور بعد، فأسلوب جمع ديوان (صمت الأصابع) يشير إلى أن الشعر الذي كتبه الجاوي أكثر مما حُفظ بين دفّتي الديوان.

التوصيات:

توصي الدراسة بتكوين فريق من الباحثين المهتمين وممن عاصروا الجاوي ليعملوا على **جَمْعِ ما فُقد من شعر الجاوي**، على أن يبدأ عملهم من الحلقة الأضيق (الأسرة والأصدقاء المقربين) ومن ثم توسيع العمل ليشمل المحيط (المحلي) الذي عاش فيه الشاعر إضافة إلى الصحف والمجلات.

لا شك أن جامع الديوان الأستاذ عمر محمد عمر – عليه رحمة الله – قد بذل جهدا لا يستهان به في جمع الديوان، وكان يأمل أن يحظى الديوان بدراسة نقدية تتناسب مع قامة الجاوي الأدبية والاجتماعية، ومع ذلك فإننا **نوصي بإعادة طباعة الديوان وتصحيح الأخطاء الطباعية التي صاحبت طبعته الأولى**، إضافة إلى تضمين الدراسة النقدية لطبعة الديوان الجديدة.

توجيه الباحثين في أقسام اللغة

العربيــة لا ســيما طــلاب الدراســات الأدبيــة إلى **دراسـة شـعر الجـاوي حيـث يمكـن تنـاول الديـوان عمومـا مـن خـلال الدراسـة الفنيـة بشـكل أوسـع مـما قمنـا بـه، أو دراسـته أسـلوبيا، كـما يمكـن للباحثـين دراسـة البعـد الفكـري والفلسـفي في شـعر الجـاوي**، أو غـير ذلــك مــن الدراســات الأدبيــة؛ حيــث يُعــدُّ الديــوان مــادة مناســبة للبحــث والدراســة الأكاديميــة.

قبل الختام:

نتيجة لضيق المساحة الممنوحة لنا في هذا العـدد فإننـا سـنُخصص حلقـة أخـرى نسـلط مــن خلالهــا الضــوء على (الجــاوي العاشــق) مــن خلال النصــوص التــي ذيلهــا بقولــه: (إلى ليندا نيكو لايفنا) إضافة إلى قصيدة (صمت الأصابع) التــي أعطــت الديــوان اســمها.

الهوامش والمراجع:

(١) عمـر عبدالله الجـاوي مـن الـرواد الأُول للحركــة الوطنيــة والنقابيــة في اليمــن؛ فهــو ثائــر وكاتــب ومثقــف وشــاعر، مــن مواليــد قريــة الوهــط، محافظــة لحــج عــام ١٩٣٨م. درس في مــدارس لحــج، ثــم ابتُعــث للدراســة في الخــارج، فــدرس في كل مــن مصر والاتحــاد الســوفيتي، وفي عــام ١٩٦٩م حــاز على درجــة الماجســتير في الصحافــة مــن جامعــة موســكو. وحيــنما عــاد للوطــن كان لــه أنشــطة كــثيرة تَنُـمَّ عــن شــخصية متميــزة ومتفــردة في مجــال الفكــر والسياســة والأدب، ومــن أهمهــا

أسـس في عـام ١٩٧٠م اتحـاد الأدبـاء والكتّاب اليمنــيين، وتــولى منصــب أمينــه العــام حتــى عــام ١٩٩٠م. وفي عــام ١٩٧٢م أعــاد إصــدار مجلــة الحكمــة لســان حــال الأدبــاء والكتّــاب اليمنــيين، وتــولى رئاســة تحريرهــا لعقديــن مــن الزمــن. أســس حــزب التجمــع الوحــدوي عــام ١٩٨٩م وتــولى منصــب الأمين العــام حتــى وفاتــه في ديســمبر ١٩٩٧م

* له عدد من المؤلفات منها:

- حصار صنعاء.
- الزبيري شاعر الوطنية.
- الصحافــة النقابيــة في عــدن.
- افتتاحيــة مجلــة الحكمــة
- ترجــم عــن الروســية (السياســة البريطانيــة في جنــوب اليمــن)

(٢) عُكفــة: أو (العُكفــي) يمكــن تشــبيهه اليــوم (بالحــرس الخــاص) ويُمثــل في وجــدان اليمنــي أداة البطــش والوحشــية للنظــام الإمامــي

(٣) المعجــم الشــعري، د. إبراهيــم جابــر علي، ص١٥.

(٤) المعجم الشعري عند حافظ إبراهيم، أحمد طاهر، مجلة فصول، ٢/٣، ص٢٩.

(٥) الخطــاب الشــعري الوطنــي اتجاهاتــه وروائــع أعلامــه، أحمــد زلــط، ص١٧

(٦) ديــوان صمــت الأصابــع، تأليــف/ عمــر الجــاوي، جمعــه وقــدم لــه/ عمــر محمــد عمــر، مركــز عبــادي، واتحــاد الأدبــاء والكتّــاب اليمنــيين، ط١، ٢٠٠٣م، ص٣٦.

(٧) الديوان، ص١٠٤.

(٨) الديوان، ص١٠٥.

(٩) البَـدَنُ: الــدرع القــصيرة على قــدر الجســد فقــط، وقيــل هــي الــدروع عامــة. (اللســان، ٤٩/١٣).

(١٠) الديوان، ص٦٨-٧٠.

(١١) الديوان، ص١٨.
(١٢) أسرار البلاغة، للجرجاني، ص٤٣.
(١٣) الديوان، ص٣٠.
(١٤) الصناعتين، ص٢٤٣.
(١٥) علم البيان وبلاغة التشبيه في المعلقات السبع، مختار عطية، ص٢٨.
(١٦) الديوان، ص٥٦.
(١٧) الديوان، ص٥٢.
(١٨) مفتاح العلوم، للسكاكي، ص٤٠٢.
(١٩) دلائل الإعجاز، للجرجاني، ص٧٣.
(٢٠) الديوان، ص٢٨.
(٢١) يُنظر: الديوان، ص٢٨.
(٢٢) الديوان، ص٨٣.
(٢٣) و (٢٤) يمكن الرجوع إلى مؤلفات هؤلاء النقاد وهي متوفرة في كثير من المكتبات الالكترونية
(٢٥) الديوان، ص١٠٣.
(٢٦) زند: الزند والزندة: خشبتان يُستقدح بهما، فالسُّفلى زندة والأعلى زند وهو الذي تُقتدح به النار. (اللسان، ١٩٥/٣)
(٢٧) الديوان، ص٩٦.
(٢٨) الديوان، ص٥٧.

رجل الكهف والأخطبوط

عبدالله السالم علايه، شخصية فريدة من جزيرة سقطرى، اشتهر بلقب رجل الكهف بعد أن اختار العيش لسنواتٍ داخل كهفٍ مطلٍّ على البحر، جعل منه بيتًا ومزارًا رمزيًا يعكس روح الجزيرة العريقة

تحوّل عبدالله إلى وجهٍ سياحي وإنساني بارز في سقطرى، حيث يستقبل الزوّار بابتسامته الصادقة وحديثه الممتع عن الجبال والبحر والنباتات النادرة التي تميّز الجزيرة

يتحدث الإنجليزية وعدة لغات أجنبية تعلّمها من السيّاح القادمين، وأصبح حلقة وصلٍ بين المجتمع المحلي والزوار الأجانب، يُعرّفهم بعادات أهل سقطرى وتراثهم البحري، ويروي قصص البحر والأسماك والأخطبوط الذي صار رمزًا يرافقه في الصور والذاكرة

يُجسّد عبدالله السالم علايه صورة الإنسان السقطري البسيط والمضياف، الذي يحوّل العزلة إلى لقاء، والكهف إلى جسرٍ مفتوح بين الثقافة المحلية والعالم